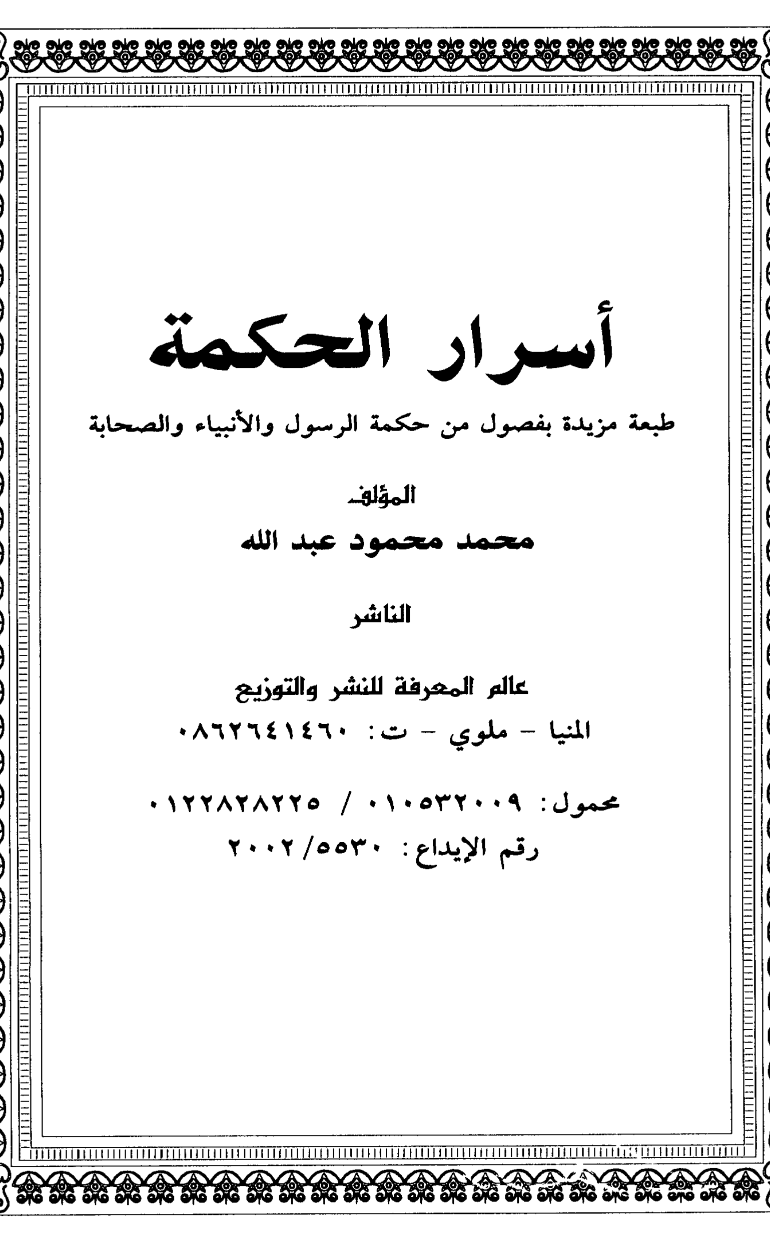


أسرار الحكمة

طبعة مزيدة بفصول من حكمة الرسول والأنبياء والصحابة

المؤلف

محمد محمود عبد الله

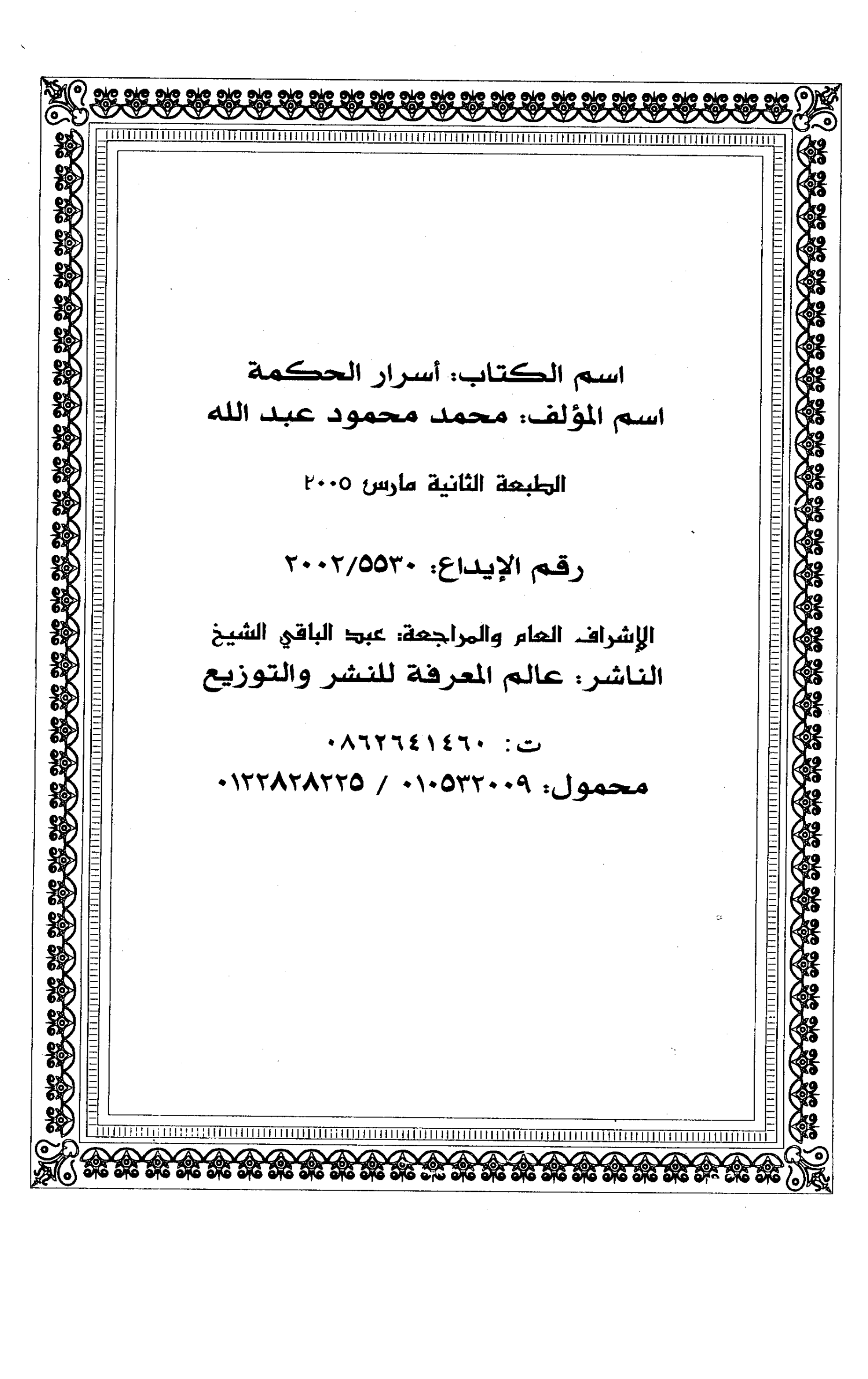
الناشر

عالم المعرفة للنشر والتوزيع

المنيا - ملوي - ت: ٠٨٦٢٦٤١٤٦٠

محمول: ٠١٠٥٣٢٠٠٩ / ٠١٢٢٨٢٨٢٢٥

رقم الإيداع: ٥٥٣٠/ ٢٠٠٢



اسم الكتاب: أسرار الحكمة
اسم المؤلف: محمد محمود عبد الله

الطبعة الثانية مارس ٢٠٠٥

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/٥٥٣٠

الإشراف العام والمراجعة: عبد الباقي الشيخ
الناشر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع

ت: ٠٨٦٢٢٦٤١٤٦٠
محمول: ٠١٠٥٣٢٠٠٩ / ٠١٢٢٨٢٨٢٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله مبدع الأكوان، خالق الإنس والجان، منزّل القرآن، ملهم البيان، ومعلّم الإنسان، والصلاة والسلام على أشرف الخليقة حسبًا، وأطهرهم نسبًا، وأعذبهم نطقا، وأفصحهم بلاغة ولسانا، وتبارك المنزل على عبده: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩] .

وبعد:

فإنَّ الناظر بعين البصيرة والبصر يجد أنَّ كلمة حكمة تجمع في طيّاتها شتى صنوف الفضائل. وهي ينبوع المكارم في الأخلاق والصفات، وهي الدعامة الثانية في قوام الوجود بعد كتاب الله عز وجل. فهو الدستور الإلهي الذي خطّ المنهج ورسم الطريق وفصّل وبيّن كل شيء والحكمة هي ينبوع فضائل المنهج ومعالم طريقه نتبين ذلك من نزولها مقترنة بالكتاب، قول الحق عز وجل: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣] .

ولقد جاءت الحكمة مرتبةً ثانيةً في طلب الخليل إبراهيم عليه السلام، بالنسبة للتعلم ضمن منهج البعثة المحمّدية، يوم أنْ دعا ربَّه فيما سجّله القرآن الكريم قول الحق عز شأنه: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:١٢٩] .

ويذهب بعض العلماء إلى أن السنة هي الحكمة. ولكن الحكمة هي شمول الفضائل والمكارم. وشرح السنّة جزئيّة من الحكمة التي نزلت مقترنة بالكتاب، موضّحةً للمنهج، مضيئة للمعالم لقوله ﷺ: «**أوتيت القرآن ومثلَه معه**». فالحكمة للنبي ﷺ عامة، والسنة من الحكمة، والطب والعدل، والفطنة والذكاء ورجاحة العقل، ومكارم الأخلاق، ومقابلة الإساءة بالإحسان، ويقظة الضمير في ما بين العبد وربه، وشتى صنوف الفضائل وعظيم الصفات جميعها تنبع من معين الحكمة، والحكمة صفة الرب عزّ شأنه، واسم من أسمائه سمَّى به نفسَه وأودعه قلب من ارتضى من عباده، وبيّن سبحانه أنها منحة تجمع كثير الخير لمن يؤتاها: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

وجاء من وصايا لقمان الحكيم لابنه قوله: «**يا بنيّ، جالسِ العلماء، وزاحم الحكماء،**

فإن الله تعالى يُحيي القلب الميت بنور الحكمة، كما يُحيي الأرض الميتة بغيث السماء».
ولا يغيب عنا أن العبد الصالح لقمان أخلص لله قلبُه في الطاعة والعبادة، فخيّر بين النبوّة و الملك والحكمة فاختار الحكمة؛ فاختار الخير الكثير: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان:١٢] وللدلالة على عظيم فضلها ورفعة مكانتها عند المليك، اقترانها بالعزة في قوله عزّ ثناؤه، ضمن طلب الخليل عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩].

فطوبى لمن أودع الحقّ تعالى الحكمة قلبه، وزيّنه بها، فكانت له نبراس الطريق، وسِمة العدل إذا حكم بين عدو وصديق، وترياق الداء إذا طغت الحماقة وكادت القلوب أن تزيغ أو تضيق. والصلاة والسلام على سيّد الحكماء محمّد معلّم الإنسانية ونور الطريق، وآله وصحبه ومن شرح الله صدره للإسلام، فهو على نور من ربه، ومن اهتدى فكان بالتوحيد لنا رفيق، وسلم.

خادم العلم والقرآن

محمد محمود عبد الله

* * *

- ١ -

حكمة الخلق

قد يسأل سائل: لماذا أوجد الله تعالى الخلق؟

والإجابة: أنَّ الحكمة في إيجاد الخلق هي عبادة الخالق سبحانه . دلَّ على ذلك قول الحق عز شأنه : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات :٥٦] .

والحكمة من إيجاد المخلوقات عامة هي الإقرار للخالق سبحانه بالعبودية : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم :٩٣-٩٥] .

وإقرار الكائنات للخالق عزَّ ذكره بالعبودية ، يُلزِمُها بتسبيح المعبود وتنزيهه جلّ وعلا ، وتقديسه . فعن تسبيح الكائنات للخالق عامّةً قرّر التنزيل : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

وعن سجود الكائنات للخالق أيضا: قرّر التنزيل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج : ١٨] .

وعن التسبيح و التقديس قالت الملائكة : ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة :٣٠] أي نسبح بحمد ذاتك على نعمائك ، ونتطهّر من أجل قدسيتك .

وجميع الكائنات تسبّح الله وتسجد على طريقتها . فالطير يسجد للخالق عزّ شأنه ، بصفّ أجنحته ، وخشوع رأسه وخضوع جسده ، عرفانًا بالجميل لواهب النّعم العظيم في القدم ، كيف سيّره في السماء ، يطير في الهواء ، وكيف أبطل فيه إعمال قانون الجاذبية ، جاذبية الأرض ، وانعدام الوزن ، إنها قدرة الخلاق العظيم ، صاحب الفيض العميم . وانظر إلى ما سجّله التنزيل عن حال الكائنات ومنها الطير عند تسبيح ربها : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور :٤١] .

هذا هو حال الكائنات ومنها الطير ، ولعلّها لغة الطير التي علّمها إياها الخالق عزّ وجل ، إذ نتبين من الآية أنَّ الحق تعالى ألهم كلَّ كائن لغةً يسبِّح بحمده بها ، وعلّم كل كائن كيفية يصلي لخالقه بها . كل كائن يقر له بالعبودية ، ومطلق الربوبية ، للخالق سبحانه . وهذه اللغة في التسبيح ، والكيفية في الصلاة ، لا يعلمها إلا الله وحده عزَّ ثناؤه : ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور :٤١] .

أي أنه سبحانه، علم الكلَّ لغة تسبيحه، وكيفية الصلاة له، وهو عالم بالكل أيضًا: حركات وسكنات، نطقًا وصمتًا، إشارات وهمسًا، كما هو الحال في صفِّ الطير أجنحته عند التسبيح وصلاته لخالقه عزّ ذكره، إذعانًا له بالعبودية، وإقراراً له بمطلق الربوبية، إنه القادر المقتدر، الخالق العظيم، صاحب الفضل والنعم، المنزّه منذ القدم، ولا شك في أنَّ الكائنات عامة لها لغات مثلنا تمامًا، تتخاطب بها فيما بينها وتتفاهم، وتسبّح بها بحمد ربها، ولكننا لم نرتق بعدُ لمعرفة وفهم تلك اللغة.

- ٢ -

أسرار الحق في الخلق

الحقيقة التي تحارُ فيها العقول وتعجز فيها الأفهام، هي أسرار الحق، عزّ ثناؤه، في الخلق فهي لا تحصى ولا تُعد، ولا تتناهى ولا تُحدّ، فلا طاقة لعلم ومدارك البشر إلى الإحاطة ببعض جزئياتها. فكل مخلوق سرٌّ لا يدركه إلا صاحب السر جلّ ذكره: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فالكون مليء بتلك الأسرار، وحُجُب الأستار، التي لا يبلغ منتهاها إلا الواحد القهار، فعلى سبيل المثال، العقل البشري سرٌّ من جملة الأسرار وإن كان محدودًا يعجز عن إدراك حقيقة نفسه، فكيف بمن حوله من أسرار الأسرار في هذا الكتاب المفتوح – أعني الكون – بُحورٌ من الأسرار، وهذا الكون ليس إلا واحدًا من جملة الأكوان. وعالمنا المشاهد هذا هو واحد من جملة العوالم. فمن الثابت أن لله تعالى عوالم وملكوتات غير التي نعلمها، لما ورد في الخبر من أنّ الملائكة سألوا ربَّ العزّة سبحانه: «**ربنا وسيّدنا وخالقنا، سبحانك، تنزهت أسماؤك، وتقدست صفاتك. قلت للسموات والأرض**: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. فماذا لو لم تأتيا طائعتين؟ قال سبحانه: كنت أمرت دابة من دوابي تلتقمهما معًا لقمةً واحدة. قالت الملائكة: في أي مكان هذه الدابة سبحانك ربنا تكون؟ قال سبحانه: في مُلك من ملكوتاتي التي لا يعلمها إلا أنا» فثبت أن لله تعالى ملكوتات غير التي نعلمها. وهذه الدابة يقال إنها العنقاء. وعلى سبيل المثال أيضًا: الروح؛ تلكم النسمة الربّانية سرّ، وسرّ السرّ على مدى أحقاب الزمان الغابرة والحاضرة. هل توصل عالم من العلماء على اختلاف أجناسهم، ونبوغ عبقرياتهم، وما تكشف لهم من أسرار العلوم التي هداهم الحق تعالى إلى الكشف عنها واستغلالها في حياة البشر الخاصة والعامة، نفعًا أو ضرًّا، بدءًا من تحليل الذرة ومكوّناتها، وحتى ما بعد الفضاء الجوي، وسطح القمر، واستخدام الطاقة الشمسية، والأشعة بأنواعها: ليزر أو فوق البنفسجية أو غيرها مما يكتشفه مستقبلاً العلماء أو تمّ اكتشافه، ومهما جَدَّ الباحثون

في أبحاث الكون والطبيعة، فلن يستطيعوا كشف أو معرفة جزئية ولو بنسبة ١٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ١٠٠٠ من البليون من سرّ الروح؛ الذي هو من جملة الأمر الإلهي المكون في مجموعه اللفظي للبشر من حرفين هما الكاف والنون (كُنْ) هذا الأمر الذي قامت به الكائنات والموجودات، وبُسطت الأرض ورُفعت السموات: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس :٨٢] .

هذا مع مراعاة أنّ الحق سبحانه، الذي أودع جسد أبي الخليقة آدم عليه السلام، نسمة الروح - سرّه المكنون الذي لا يعلم حقيقته إلا هو - نفخ فيه نفخة واحدة ولم تتكرّر، فكلما تكوَّن جنين في بطن أمه على مدى الزمان من لدن آدم وحتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، سرت إليه جزئية من تلك النسمة الربانية (نفخة الروح الأولى في أبيه آدم عليه السلام) فيجعل الحق تعالى منها حياته، سرّ حركاته وسكناته، ولذا لا يملك أحد من العلماء أن يعرف الروح، وإنما نعرف وظيفتها فقط. فهي التي تدخل المادة فتُكسبها الحركة بعد السكون، والحياة بعد الموت، وهنا الفرق بينك وبين النبات: فأنت فيك روح، وبالتالي فيك حياة، وضدّها الموت بسلب الروح منك أما النبات ففيه نمو روحيّ وضده الجفاف أو الذُّبول أو الحصاد كلّما بلغ الأجل ووفى الميعاد. لك الذّكر نطقًا باللسان، أو همسًا بالجنان، أو صامتًا بالوجدان، وللنبات الذكر صامتًا أيًّا كان.

سخَّر الحق تعالى لك كل شيء، تشريفًا وإجلالاً للسر الذي أودعه فيك (نسمة الروح) التي هي سر حياتك، وبها درجة تكريمك على سائر المخلوقات، فإن الإنسان خلق حينًا من الزمان ليس له قيمة تُذكر من حيث هيكله الطيني، ، لا يُقاس في درجة التباين إلى الملائكة تفاضلاً، ولا إلى الحيوانات هبوطًا، بل نوعية غير مصنفة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان :١] .

وحينما أنعم الحق تعالى عليه بنسمة الروح أسجد له الملائكة، وهي درجة في التكريم ما بعدها من تكريم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر :٢٩] .

فالإنسان عاجز عن معرفة نفسه، أو إدراك حقيقته، والدليل على ذلك أنه لو يعرف حقيقة سرّه ما دعاه الخالق سبحانه إلى التبصّر في ذاته: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات :٢١] وهي الأقرب إليه. والمعنى: لو أبصرت أيها الإنسان حقيقة سرّك في نفسك، لما وسعك إلا أن تسجد آناء الليل وأطراف النهار لربك: بارئك ومصوّرك وموجدك من لا شيء جعلك شيئًا: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون :١٤] . فهذا سرّ من سرّ السرّ من كنوز أسرار العزيز القهار، مكوّر الليل على النهار، فما بالك بكنوز الأستار التي مفاتيحها مع عالم الأسرار. فطوّفْ بالبصر والبصيرة لمحةً في المُلك والملكوت، في العوالم سفلية وعلوية. وكنوز ألطافها الخفية، تجد

أن العقل، وهو أحد الأسرار، عاجز يحار في بعض جزئية سرّ من الأسرار، فما عليه من سرعة التسليم للواحد القهار.

والخلاصة: إذا كان الله غايتك في سرّ أعماقك، وأعمالك، فأنت بمكان من حضرة القدس بالنظر وإن كانت غايتك في سواه، فسرّه وفضله عند غيرك. فاعلمْ ما استطعت بعض حقيقة السر فيك، تكوينًا ومقومات، حركات وسكنات، أنفاسًا ونبضات، حياةً وموتًا، يقظة ونومًا، وفي من حولك، ليلاً ونهارًا، بحارًا وأنهارًا، زروعًا وثمارًا، جبالاً وأشجارًا، ظلاًّ وحَرورًا، ظلامًا ونورًا، وكم في الكائنات من عجيب الأسرار، إنْ عرفت شيئًا من سرّ غابت عنك بلايين البلايين من الأسرار. ولا يزال العلم يقف مكتوف الأيدي أمام سلطان وعظمة الخلاّق العظيم عزَّ شأنه، بما وضع في كل خلق من سرّه المكنون، تبعه دقّة متناهية، وبراعة فائقة في التكوين والتمكين، لا يملكها إلا القويّ المتين، جلت قدرة الصانع الأمين، انبهر لها العقل، وحار وعجز الفكر. فخذ بالعبرة من صالح العمل في الدّنيا إلى الآخرة زاد الطريق، واجعل من ذكر الله تعالى لك في القبر خير أنيسٍ ورفيق. واعلم أنّ كل كائن من المخلوقات له بداية ونهاية، وغاية العباد مرضاة ربّ العباد، وغاية المخلصين من العبيد مرضاة المُبدئ المُعيد: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة:١١٩]، ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [آل عمران:١٠٦]. وبداية العبد ضعف ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [المرسلات:٢٠]. ثم قوة ثم ضعف، ثم شيبة، وهي مؤشّر النهاية، وإلى هذا جميعه يشير الحق سبحانه بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ [الروم:٥٤]. فاعمل جاهدًا إلى تحقيق الغاية قبل النهاية، ورحم الله تعالى الفاروق عمر بن الخطاب، يوم أن قال لأبي عبيدة بن الجراح، حين قال له: تمسك بزمام الناقة وغلامُك يركب فوقها وتمرُّ على أهل الشام على هذه الحال وأنت أمير المؤمنين؟! فقال له عمر: إن الله تعالى قد أعزني بالإسلام، فلا أبالي مقالة الناس، أما تعرف أن بدايتك نطفة مذرة، ونهايتك جيفة قذرة، وأنت بين الاثنتين حامل العذرة - يقصد البراز والبول-. والمعنى: لم التكبّر وهذه هي حال الخلق في الناس، أقوياء وضعفاء، أغنياء وفقراء؟ ومن فطانة عمر - رضي الله عنه - أنْ ذكَّره بالبداية من ماء مهين، وهو ضعف ما بعده ضعف، ثم بالنهاية جيفة قذرة، وهي نهاية محتومة لا محالة، وهنالك لفتة أخرى بذكاء عمر تلوح منها: يا أبا عبيدة، فما بالك إن تعطل فيك خراج البراز، أو انحصر البول، ماذا تصنع بتجبّرك؟ وهي إشارة إلى ضعف العبد وشدّة حاجته إلى خالقه عزَّ شأنه. وأيضًا إشارة إلى سرٍّ من كتل الأسرار داخل كيان النفس البشرية، وبيان عجز الإنسان وضعفه عن إدراك حتى أقل الأسرار داخل حقيقة نفسه فكيف بمن حوله؟!

فحركة الأمعاء، والمسالك البولية، والدورة الدموية والهوائية وحاسّة السمع والبصر والشم

والذوق، واللمس، كلٌّ منها أسرار الأسرار التي لا يعرفها إلا العزيز القهار، عزَّ شأن الخلاق العليم. وانظر إلى شجرة التوت، يأكل النحل ثمرها فينتجه عسلاً مصفّى فيه شفاء من كل داء، ويأكل دود القزّ أوراقها فيحوّله إلى حرير. ويأكله الغزال أيضًا، فيحوله إلى مسك. فانظر في نفسك وفي الآفاق. واستشعر عظمة القادر الخلّاق. واجنِ قُطوفًا بالنظر في المُلك والملكوت، بالفكر والتدبّر، سترى عجائب سرّ أسرار عظمة الحي الذي لا يموت: «**وتصدق علينا**».

- ٣ -

الحياة

الحياة هي نعمة الوجود التي وهبها إياك الخالق المعبود عزَّ ثناؤه. واعلم أنَّ الحياة لا تُقاس بزمن بقائك فيها أيامًا وسنين، وإنما تُقاس بما تحقِّقه فيها من إنجازات تفيد البشرية.

والحياة بحر مهول، وجسمك فيه يشبه السفينة، وعقلك رُبانها، وضميرك بوصلة المسير، وأنفاسك هي الموج، وذاتك طالب النجاة، والهوى كالهواء، فانظر إلى من تسلّم قيادة السفينة.

والإنسان في الحياة عامل، وحياته فيها آلة عمله، فإنْ أحسنَ استخدامها خَدَمتْه، وتمَّ انتفاعه بها، وإنْ أهملها أو أساء استخدامها خربت وأرهقته بحملها. والناس في الحياة الدنيا نوعان:

نوع تخدمه الدنيا، ونوع يخدم الدنيا. فطوبى لمن تخدمه الدنيا: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

- ٤ -

معالم الطريق إلى الله

إن الطريق إلى الله تعالى طويل، تعب فيه آدم عليه السلام، وناح لأجله نوح، وألقي في النار الخليل إبراهيم، وأُضجِعَ للذبح إسماعيل، وقاس الضُرَّ أيوبُ، وأُلقي في اليم موسى، وسار مع الوحش عيسى، واستغاث في بطن الحوت يونس، وعالج أنواع الفقر والأذى محمد ﷺ، وهذا هو حال الطريق مع الأنبياء، فكيف بالغافلين واللّاهين الضعفاء، لذا نضرع إلى خالق الأرض والسماء، أنْ يثبت خطانا على الطريق.

والخلاصة: إنَّ معالم الطريق إلى الله تعالى هي: إخلاص فإرادة، طاعة فرياضة، فجهدٌ فتثبت بجلادة، فانشراح للصدر بنور اليقين، فسعادةً، فإحسانٌ فيه حسنى وزيادة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

- ٥ -

سر الفلاح والنجاح

الفلاح: هو الفوز والرّشاد والظّفر، وهو مقصود العبد يوم القيامة.

أمّا النجاح: فهو بلوغ الغاية وتحقيق الهدف، وهو مقصود العبد في الدنيا.

ولكلٍّ من الفلاح والنجاح مقوّمات يتحقق بها.

أولاً: مقومات الفلاح، وهو ثمرة الآخرة، وله يسعى المخلصون الأبرار، وأول مقوماته:

١ - الخشوع في الصلاة مقترن بالإيمان: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢]. فإيمان بالله مبدع الأكوان عزّ شأنه، زائد خشوع في الصلاة لوقتها يساوي فلاحًا.

٢- تزكية النفس: أي تطهيرها من دنس الشِّرك وظلمات الأغيار، مقترن بالطهر بذكر الله عز وجل، في الصلاة وغيرها لقوله عزّ ثناؤه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤-١٥].

٣- طُهر النفس: ويُقصد به طهر الظاهر والباطن، وهو ما يعرف بالطهر الحسّي والمعنوي.

فالحسي يشمل طُهر المأكل والملبس والمشرب من حلال، والقول والفعل.

أمَّا المعنوي، وهو ما يعرف بطهر الباطن، فيشمل سلامة العقيدة، ونقاء السريرة وبراءة القلب من الشرك والرياء والنفاق. كل هذا يساوي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩].

أمّا مقومات النجاح فمنها:

١- العمل الدائب: وهو نوعان: عمل للدنيا وهو ما يحقق مقوّمات الحياة الكريمة بصنوفها سعيًا في الأرض ومشيًا في مناكبها لقوله عز شأنه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩]. وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥].

النوع الثاني من العمل: العمل للآخرة، وهو قيام العبد بإقامة الأركان، وتأدية الفرائض يتبع ذلك الإخلاص في العملين: عمل الدنيا وعمل الآخرة، مع مراعاة أنَّ الناقد بصير، والمراقبة دقيقة للغاية لأنَّ العمل بنوعيه يندرج تحت قاعدة: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥].

* * *

٢- الفكر الحاضر: وهو نوعان أيضا:

فكر للدنيا: بما يفيد الأمم أو المجتمع، ويشتمل على فكرة نافعة تعالج مشكلات العصر.

والفكر النافع، منه الاختراع والابتكار، والتطوير والتجميل. وكل فكر يفيد حياة البشر فهو فكر نافع يحقّق الرفاهية والازدهار للشعوب والأمم، فصاحبه حاضرٌ وإنْ كان جسده يواريه التراب.

وأما الفكر للآخرة: فهو بالنّظر والتفكر والتدبّر في الملك والملكوت يستشعر عظمة الحيّ الذي لا يموت. وهو قسم من الذّكر والتسبيح الصامت للخالق سبحانه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١].

٣- ومن مقومات النجاح: الاقتصاد في غير بُخْل وتقتير، فلا ترَف ولا بذْخ يؤدي إلى الإفلاس، ولا تقتير يضيق على الأهل والأبناء يؤدي إلى الحرمان، والحرمان يسبب الأمراض وضعف التكوين في بنية الولد، وبالتالي يَتبعه ضعفٌ في العقل يتبعه فسادٌ للفكر يساوي تأخرًا للأمة؛ لأن ازدهار الأمم ورقيها بعقول أبنائها، والعقل السليم في الجسم السليم.

وقد حذر الحق تعالى المسرفين والمقتِّرين بقوله عزَّ شأنه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩].

وهو ما يعني الاعتدال في الإنفاق والاستهلاك بما يحقّق الوسَطيّة في الأمور، والوسطية هي خيرة المنهجية للأمة وحكمة الخالق عزّ ذكره فيها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣].

٤- ومن مقومات النجاح اغتنام الفرص السّانحة في غير مُنْكر ومُحرم، فالفرص السّانحة تشبه الريح الطيبة في نسماتها تشفي كل عليل. فإذا هبّت ريحُك فاغتنمها فإنّ من عادة الريح السُّكون، وإنّ حنَّتْ ناقتك فاحتلبها فإنَّها بعد ذلك تخفي لبنها لوليدها. هكذا تشبه الفرص.

- ٦ -

أساس التربية

الأصل في التربية قدوة الأبوين الحسنة، فهي أفضل مدارس التربية؛ بغرس الفضائل، وتنشئة المكارم، وتنمية المواهب. وتأتي المدارس مَرْتبةً ثانية بعد الأبوين، تقويمًا وإرشادًا وتفهيمًا.

ويعد المعلّم والمعلّمة أبوين روحيين للأبناء، إذْ يكسب الصغير منهما مثل أبويه في البيت، ويتأثر كثيرًا بما فيهما من انطباعات في السلوك و الحركة والذكاء والغباء والعادات وأيضا الحكمة والتثبت والتريث والعفة والفطنة، وشتى صنوف الفضائل والمكارم في الأخلاق

والصفات. إذ الصغير في مراحل الطفولة المبكّرة أشدّ قابليّة للتقليد وسرعة التأثر بما يدور من حوله.

ويلي ذلك من مقامات التربية المساجد. إذ المسجد دعامة راسخة في التعليم والتوجيه والإرشاد والتقويم.

والتديّن في البيت كنز مُدَّخَر، وإهمال مواهب الولد في الصغر جريمة لا تغتفر وتخريجه على غير ما أُهِّلَ له بفطرته أدهى وأمرّ. والأب الصالح مثلٌ أعلى لأبنائه، والوالد الفاسد شيطانُ بيته.

- ٧ -

الإرادة الإنسانية

الإرادة داخل كيان الإنسان، هي إقدامه على الفعل دون إكراه. وترتبط إرادة الإنسان بقوّة شخصيته وتكوينه من حيث البنية، ومدى قدرته على اتخاذ القرار. هذا من الناحية البشرية (طبيعة تكوين البشر). ويغيب عنّا أنَّ إرادة الإنسان جزئية من إرادة الذّات العليّة للخالق سبحانه، تندرج تحت قاعدة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

فقد تكون للعبد مشيئة يريدها ولكن لا توافقها مشيئة وإرادة الربّ سبحانه، فهي إذن موقوفة إلا أن يشاء الله. وكم من مشيئات بإرادة في داخل كيان العبيد لا توافقها مشيئة المُبدئ المُعيد عزَّ شأنه، ومن إرادة الفَطِن أن يفتّش كلامه قبل أن يلفظ فهو محسوب عليه، وأن يجوّد عمله فهو منسوب إليه: في الدنيا قانون البشر وفي الآخرة حساب ربّ القَدَر: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

- ٨ -

الضمير الإنساني

يعتبر الضمير الإنساني هو الحَكَم والفيصل بين ما تجمعه النّفس الواحدة داخل كيانها من نفسين، هما:

اللّوّامة: وهي جانب الرحمن في العبد، لها يُهدى ومن أجل مرَضاتِه تعمل.

والأمّارة: وهي جانب الشيطان في العبد: لها يُهدى وله تعمل.

ويقف الضمير الأخلاقي فيصلًا بين الاثنتين. والضمير حاكم عادل. وكائن منظم وحيٌّ لا يموت، وإنْ تغيب أحيانًا تحت أثقال الذنوب، وانحرافات الغفلة، وطغيان المعاصي. وهو

الذي يلوم النفس على كل قبيح منكر، ويقف فيصلاً إن أرادت التجاوز، وهو أصعب وأقسى أنواع العذاب على النفس، بما يعرف بعذاب الضمير **«تأنيب الضمير الأخلاقي داخل كيان العبد»** ومنه سرور النفس حينما ترقى إلى سمو الفضائل، ومنه حزنها حينما تنحدر هبوطًا إلى الرذائل وفعل المنكرات، ينكر عليها فعلَها ويزيد من تأنيب العبد. وجاء في الأثر ما يشير إلى يقظة الضمير بوقفة الإنسان مع نفسه، قولهم: **«إنْ سرّتك حسنتُك وساءتك خطيئتُك فاعلم أنك مؤمن»**.

ولا يقع السّرور إلاّ إذا كان ضمير العبد راض عن نفسه، ولا يقع الحزن إلا إذا كان الضمير في العبد غاضبًا من تصرفاته رافضًا لقبح أفعاله. ومنه لوم النفس نفسها.

وقد أقسم الحق تعالى بها في قوله عزَّ شأنه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢].

والخلاصة: إنّ الضمير الإنساني، سراج الروح، ومصباحُ النفس، فلا تُطفئه بالهوى، وهو ميزان العدل داخل كيان نفسك فلا تُخسره بالمعصية.

وطوبى لأصحاب الضمائر اليقظة يوم اللقاء والعرض على خالق الأرض والسماء.

- ٩ -

الإنسان والإيمان

الإنسان هو أكرم المخلوقات على الله عزَّ وجل. فهو صنعة الرب سبحانه، وتسويته، وإحسانه، وفيه أودع سره. وهو نسمة الروح الربانية التي نفخها الحق تعالى في أبي الخليقة آدم عليه السلام، بعد أن خلقه بيده وسَوّى خلقه، ووهبه منحة التكريم العالية التي نال بها درجة التكريم على سائر المخلوقات، واستحق بها سجود الملائكة له، وهي نفخة الروح من الله عزَّ ثناؤه فيه: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

وكلمة إنسان جاءت من الأنس والاستئناس، أي أنه آلف مألوف، يأنسُ ويُستأنس به، على العكس من الوحوش والحيوانات. وقد أشار القرآن إلى حسن تقويم الإنسان في خلقه: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤].

وليست قيمة الإنسان الحقيقية فيما يجمع من ثروة، أو يحرز من ذكاء وشهرة، وإنما قيمة الإنسان الحقيقية فيما تنطوي عليه نفسه من فضائل. وفيما يقدم لمجتمعه من خدمات ومنافع، تنبعث من مكارم الأخلاق، والقدوة الحسنة. فهيّا أيها الإنسان، ارتقِ بذاتك الإنسانية، واسمُ بإيمانك إلى سماء المعرفة، فإنَّ الإيمان ثمرة حقيقة المعرفة.

والمعرفة يقين القلب عرفانًا بجميل الربّ سبحانه، الذي وهبه الحياة، ومنحه الهداية إلى معرفته، ومنها عرفوا الله فعبدوه، وشاهدوا عظمة جبروته فخافوه.

ومرتبة المشاهد تكون للقلب بنور اليقين. وثمرة إيمانك تُقاس بما صرفت فيه هِمَّتك، إمّا في طاعات وإمَّا في معاص. فإن كان في عمل الصالحات وطيب الطاعات وكريم الأفعال والصّفات، بما يُصلح الكون، ويُحيي النفوس، ويدرأ الآفات - أعني آفات الشرك عن القلوب - وآفات ظلمات الأغيار، أعني التعلق بالدنيا وزخارفها، فإيمانك إذنْ صادق.

وحظُّك ما ضاع فيه وقتك، ونهايتُك ما تعلقت به روحك عند بدايتك، أعني يوم العهد الأكبر الذي أخذه الحق تعالى على ذريّة آدم وهو انفطارها على توحيده منذ اللحظة الأولى لإيجاد نَسمَاتها: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف :١٧٢]، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم :٣٠] فمن بدّل أضاع الوقت وحُرم الحظ، ومن وفَّى فالله أكرم وأوفى.

- ١٠ -

الدنيا والنفس

الدنيا: كلمة جاءت من الدّناءة، وهو الشيء الوضيع الحقير. وسُميت دنيا لدنوّ وقتها وقصر الأجل وعدم تحقيق الأمل فيها: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان :٣٣].

أمّا النّفس: فهي تطلق على الروح زائد الجسد. فالروح والجسد معًا نفسٌ، والأنفس تختلف في طبيعة تكوينها؛ فمنها المشرقة النقيّة البريئة، ومنها الخبيثة المظلمة الرديئة ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس :٧-٨]. أي وكم من نفس سوَّاها: سوَّى تكوينها مشرقةً مضيئةً، أو مظلمة رديئة، وألهم كل نوع منها التقوى والفجور بمقتضى فعل كل نفس تكتسب خاصيتها من فُجور أو تقوى.

وإن كانت الأنفس نوعين في التكوين: فهي أيضًا نوعان في السلوك والتكوين:

١- **أمّارة:** ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

٢- **لوّامة:** ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة :١-٢]، والأعداء الأربعة: الدنيا والنفس، والشيطان والهوى. فطوبى لمن جاهد الأربعة: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج :٧٨].

والإنسان في الدنيا إما يسعى إلى مرضاة ربه، وإمَّا يسعى إلى مرضاة هواه، فمن سعى في

مرضاة ربه فلا يطمع في شهوات نفسه.

واعلم أن الشهوات المباحة تكون بمقدار الدواء للأجسام، أو بمقدار الملح للطعام، ففي الكثير الداء، وفي قدر الحاجة الشفاء ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقد بيَّن بعضُهم أنَّ الدنيا والنفس والمرأة، يُهلكن العبد إن أطاعهن.

واعلم أن كل سعة فيها للنفس حظ فهي ظُلمة، وكل ضيق فيه للقلب روح فهو نور.

والخلاصة: خالف النفس تكن عاقلاً، وخالف الدنيا تكن زاهدًا، وخالف المرأة تكن حازمًا ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

- ١١ -

وظيفة الإنسان في الحياة

ماذا عسى أنْ تكون وظيفة الإنسان في هذه الحياة يا ترى وما قيمته في الوجود؟

وظيفة الإنسان في الحياة وقيمته في الوجود تكون بما حبا الله تعالى فؤاده من إدراك وعلم ومعرفة. فهو المرآة الكونية العاكسة لما تتجلى به الحقيقة الإلهية المطلقة على سائر الموجودات الأخرى فتظهر بظهوره، ويتضح وجودُها بوجوده.

وإني لأعتقد اعتقادا جازمًا أنَّ الوجود في مجموعه رسالة من الله عز وجل، مكتوبةٌ بأحرف من نور، وأنَّ المخاطب بتلك الرسالة هو الإنسان ذلك الكائن الضعيف بجسده وغرائزه، القويّ بروحه وعقله وخصائصه التي رشّحه الخالق سبحانه بها لخلافة ربّه وحَمل أمانته.

فعن خلافة الإنسان لربه في الأرض قال عز شأنه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وعن تحمل الأمانة وحملها وهي حمل ثقيل قال الحق عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ظلومًا لنفسه بتحمل أعبائها، جهولاً بعاقبة أمره لضياعها، فإن أدّاها نجا، وإن ضيعها غوى، والغواية هلاك.

* * *

- ١٢ -

وحدة الوجود

الوجود صنعة المعبود عزّ وجل، وهو وحدة مطلقة. ظاهره الكائنات المتعددة، وباطنه الحقائق المتوحّدة، وتمثّل بواطنه وظواهره وجوهٌ عدة: فوجهٌ هو الحياة، ووجهٌ هو القوة، ووجهٌ هو الحوادث، ووجهٌ هو الإدراك، ووجهٌ هو الإرادة، والكلُّ سلسلة واحدة مترابطة الحلقات، متآلفة النّسب، متوحدة النتائج. وهذه السلسلة - أعني الوحدة الوجودية - لا تذهب إلى غير نهاية، وإنما بمقادير وآجال لكل كائن فيها، قدَّرها بدقة متناهية صانعُ البداية الله الخالق عزّ شأنه. إذْ كل موجود لحكمةٍ خلقه الحق تعالى من أجلها، ولكل كائن في الوجود هدف محدد، وأجله عند المليك معدود: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الإسراء :٩٩].

ولا تحسبن أن كل ما له بداية بعد تحقيق غايته ليس له نهاية، وإنما ينتهي إلى نفس العلة التي صدر عنها؛ أعني نشاط صفات واجب الوجود. فقد أوجد كل شيء بقدرته، وفق علمه وإرادته، وأيضًا إليه نهاية كل شيء بنفس الصفات التي أوجدت. وهذا ما أعني به صفات واجب الوجود الله عزّ وجل، من قدرة وإرادة وعلم غيرها من الصفات، فإنَّ الموجودات، تأثير نشاط الصفات، وأكبر الدلالات على عظمة الصانع سبحانه واستقلالية الذات في علوّها وسمّو رفعتها. وتنزهها عن الشرك والمماثلة، فهو عزّ شأنه، خلق كل شيء في الوجود وليس في الوجود جميعه ذات تشبه ذاته جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى :١١]، ولما كانت به سبحانه، بداية كل شيء، فله أيضًا نهاية كل شيء ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم :٤٢]، ولا شك أن الله تعالى هو النّبع السامي والمعين الصافي لكل شيء في الوجود، والعجز عن الإدراك إدراكٌ، والتفكر في كيفية الذات إشراك.

- ١٣ -

الحكمة والمعرفة

الحكمة هي إنزال الأمور في منازلها، وإقرار الحقائق في نصابها، وإدراك علل الأشياء الكامنة في محيط الموجودات مع ردّ المُسببات إلى مُسبِّبها الأول وإلى سرّه السّاري في مجموعها، ولمح حكمته في ترتيب نظامها البديع، يلحظه كل ذي فكر ناضج ثاقب البصيرة والبصر بفطرته.

أمّا المعرفة: فهي إخراج الحكمة من حيِّز القوة إلى حيِّز التطبيق، والمقارنة حتى تصير مُشاهدة.

فالمعرفة كشف الحُجُب والأستار عن معين فيض نبع الأسرار. وينتهي نبع المعرفة إلى معين

العلم، ومعينُ العلم إلى حظيرة التقوى، والتقوى هي مفتاح مَعين العلم لقوله عزّ شأنه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فاعلم أنك لن ترتقي عَلَمًا في الوجود - وهو سبيل المعرفة - إلا إذا كان في القلب مثقال ذرّة من تقوى.

وثمرة الحكمة والمعرفة محبّة الله عزّ ثناؤه، وخشيته. وجاء في نصح العارفين قولهم: (رأس الحكمة مخافة الله) ولا يخاف إلا من عرف، ولا معرفة بدون حكمة، وهذا مقام الكمال لأصحاب الهمم العالية من الرجال.

ودائمًا أبت الحكمة أن تتعرف إلا إلى أهلها، وكره العلم أنْ يطأ قلوب المتكبرين.

وإنما الحكماء من لم تخرجهم عن الصّفاء كوارث الابتلاء، ولا سوابغُ النَّعماء، لاستواء المنع عندهم بالعطاء. والحكيم من عرف الله تعالى، فآثره على الدنيا، وجعلها مطية لسفره فخدمته، لا من نسي الله ورغب فيها فاستخدمته، ثم استولت على قلبه فأهلكته..

- ١٤ -

الخير والشر

الخير والشر نقيضان من لوازم قوام الوجود، مثل الحياة والموت، والنور والظلام، والبياض والسّواد، إذْ لا يُعرف جمالُ الشيء إلا بوجود ضدّه، فلا قيمة للنجاح إن لم يكن هناك رسوب، ولا يتضح جمال الكمال إلا ببشاعة النقص، وما الخير إلا ثمرة الإيجاب في جانب الكمال، وما الشر إلى حصيلة السلبية في وجود الخير.

والفيصل هنا هي مرتبة العقل والتعقّل في التمييز، وهي مرتبة هداية النّجدين، فإنّ الله تعالى خلق الإنسان ومنحه العقل وهداه الطريقين، أي حرية الاختيار: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

ولا يغيب عنا أنّ الخير والشر خُلقا من جملة البلاء للجنس البشري. فبعد أن حكم الحق تعالى على الأنفس جميعها بالموت، بيَّن سبحانه أن الخير والشر خلقا في الحياة بلاء للإنسانية فقال عز ثناؤه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فالحكمة من خلق الشرّ والخير أنهما بلاء، وفتنة للإنسان، تتباين بهما درجات الخلق عند الحق تعالى، كل إنسان بقدر ما يحقق في مسلكه من الخير أو الشر مدة حياته الدنيا. ونلاحظ أن الشر مقدم في الآية على الخير، دلالة على أنه البلاء الأشد هلاكًا لصاحبه وتنبيهًا على اجتنابه، لتتحقق النجاة: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

والخير والشر ضدان يتصارعان في الدنيا بلاء للبشرية، إلى أن يرث الحق تعالى الأرض ومن عليها، ويوم القيامة ينصبان من جملة ما يحاسب عليه الناس، لقول رسول الله ﷺ: **«والخير والشر خليقتان تنصبان للناس يوم القيامة»** فثبت أن الخير والشر خَلق من جملة خلق الله عز وجل، خلقهما في الدنيا، وأن الناس محاسبون عليهما يوم القيامة، وكل إنسان في الوجود، يحمل الخير والشر بين جنبيه، ويغلب أحدهما على الآخر بحسب تكوين النفس بطبيعتها وحكمة العقل، فالنفوس منها الخيِّرة المضيئة، ومنها الشريرة الرديئة، وقد خلق الحق تعالى الخير والشر وأمر باستباق الخيرات فقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨]. ومن عظيم صنعه عزّ شأنه، أنْ جعل الأنفس رهينة أعمالها فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨].

- ١٥ -

السعادة والشقاء

بحث الناس قديمًا وحديثًا عن السعادة، وزعموا أنهم لم يعثروا عليها في شيء، فأخطأوا، والحقيقة، لو عطفت عليهم الحقيقة لعلمتهم أنّ الرضا وصلاح البال هما مبلغ السعادة.

والسعاة أمر نسبي: أي تختلف في إنسان عنها في الآخر. ودعامات السعادة هما شيئان:

١- الرضا.

٢- صلاح البال.

فالرضا هو أن يكون الإنسان راضيًا عن نفسه، راضيًا عن ربه، راضيًا بما لديه من النعم وبما قَسَم له ربه من الرزق؛ لأنّ قمة الشقاوة عدم الرضا، ويكون هذا غالبًا في الذين لم يعرفوا طعم البؤس والألم، فهم غير مؤهلين لتذوق ما لديهم من رحيق النّعم.

فالأشقياء الذين حُرموا الرضا بما قسم الحق سبحانه لهم في حياتهم الدنيا؛ لأن الرضا يتبعه التزام بمنهج السُعداء بأفعالهم في الدنيا فينالون بها مرتبة السعادة الأبدية في جنة الخُلد والبقاء في الآخرة.

والرضا: هو مطلق التسليم لله تعالى ف[illegible] ـ سر كله، يتبعه أخذ بالأسباب في الأمور كلها، معينها العمل والكلم الطيب فينالون مرتبة ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩]، وهي الدعامة الأولى في مقومات السعادة.

أمّا صلاح البال – وهو الدعامة الثانية من مكونات السعادة – فيتحقق بثلاثة أشياء:

١- إيمان بالله مُبدع الأكوان عزّ شأنه.

٢- عمل صالح.

٣- إيمان بما نزل على محمد ﷺ.

وصلاح البال لا يُباع في صيدلية ولا عند بقّال وإنما: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢]. وصلاح البال مع الرضا هما أعلى مراتب السعادة ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هود: ١٠٨].

- ١٦ -

النية والسّريرة

أساس الأعمال في الدنيا والدين، وعلم الأخلاق، هو النية، ومحلها القلب، وهي صدق القصد في العزم على فعل الفعل.

ولأنها الأصل في الأعمال جاء قولهم: **«نية المرء خيرٌ من عمله»**.

والسّريرة: هي ما يضمره الإنسان داخل كيان قلبه، وهو ما يعرف بالسرّ المكنون للقلب (سرّ السر) توسوس به النفس دون إباحة: فقد يبوح الإنسان بسر يودي بحياته قبل المنايا، وتعجّل بمنيّته زلّة لسان، يفصح بها عما يجيش في صدره من بعض سرّه، فيقع ما ليس في الحسبان. وقد يبوح بسر فيه نفع ورفعة لنفسه ولأمته، ولكن الأفضل كتمان سرّك العميق داخل أعماق كيان قلبك (سريرتك)، لا يطلع عليه أحد إلا الله تعالى. ورحم الله تعالى الإمام عليًّا كرم الله وجهه، القائل: (سِرُّك أسيرك، ما دمت تحتفظ به في قلبك، فإن أبحت به أصبحت أسيره). واعلم أنّ هناك يومًا ستتكشف فيه الأسرار: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

والسرائر جمع سريرة: وهي ما يحتفظ به الإنسان من سرّه العميق، وما يضمر من خير أو شر. وبحسب نقاء السريرة طُهرًا وصفاءً أو خُبثًا ورداءةً. وكل قلب بقدر ما أودع الحق تعالى فيه من بصائر من نور، أو بقدر ما طبع عليه من غشاوة الغفلة وسيطرة الشيطان، وهو ما يُعرف بدنس الشّرك وظلمات الأغيار، هكذا تكون السريرة: ظلام أو نور، فيما تضمر، خير أو شر، نفع أو ضُر، هُدى أو ضلال، طاعة أو عصيان، عمل صالح وفكر نافع، أو العكس، فإن صلحت السّريرة، عُمر القلب بالنية الحسنة الخيّرة، واستقام العقل في تفكيره، نفعًا دنيا ودينًا. أمّا إذا فسدت السريرة، فسدت النية، وفسد القلب، وتخبط الفكر في مسلك العقل. وحينئذ تتداعى الأعمال للإحباط داخل ملكات النفس في جميع أعمالها. وعن النية حسبك قول الرسول الأعظم ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»**.

* * *

- ١٧ -

الحزم والعزم

الحزم: هو الجدّية البالغة في الأمور، بحسمها وسرعة الفصل فيها بوضعها في نصابها.

والعزم: هو صدق القصد وقوة الإرادة في الإقدام على تنفيذ الفعل.

ويقترن العزم بالتوكل عند الإقدام بالانطلاق في تنفيذ العمل، دلّ على ذلك قول الحق عزّ ثناؤه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهناك مرتبة سامية من مراتب الصبر: أمر الحق تعالى حبيبه محمدًا ﷺ بالتحلي بها والتثبت عند اشتداد الكُروب ونزول البلايا، وفظاعة المكايد، وقسوة القلب غفلةً عن ذكر علّام الغيوب جل وعلا، ألا وهي مرتبة صبر أولي العزم من الرّسل: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، أي تثبت في وجه أرباب الشرك والجاحدين لنعم الخالق سبحانه، المنكرين لوجوده، بأعلى مراتب الصبر، وهو صبر أولي العزم من الرسل، أي الصفوة في الصبر وقوة احتمال الأذى من الأنبياء أصحاب الهمم العالية والعزيمة الصادقة والإرادة القوية، في مواجهة أقوامهم تسلّحوا بهذا السلاح صفوة أنواع الصبر أيضًا، حتى تمّ لهم النصر والفتح.
وأولو العزم: هم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم السلام.

وجاء في وصايا العبد الصالح لقمان لابنه ما سجّله القرآن العظيم عليه قول الحق تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، أي من الأمور التي تحتاج إلى عزم قوي وهمة عالية، فلا يستطيع فعلها إلا من كان كذلك.

والعزم دائمًا يكون مسبوقًا بما أضمرته النية.

فكل ما عزم العبد على فعله، باتت نيته به قبل. ويمكن تسمية العزم بأنه ثمرة ما أفرزت النية واستخلصت من مكنون الضمير الأخلاقي داخل كيان النفس.

والحزم بالجدّ، والعزم بالإقدام، **والنية بصدق القصد**، والسريرة بالنقاء، تتحقق معالي الأمور وتفتتح أقفال حُجُب أستار **الصّعاب، وهي** مراتب أصحاب الهمم العالية.

* * *

- ١٨ -

الصبر والشكر

الصبر: هو فضيلة يتحلى بها المؤمن فيجتاز المحن، والشدائد، ويثبت على طاعة الله عزّ وجل، مهما كانت الخُطُوب، وعظُمت البلايا. فهو يصبر ويحتسب طمعًا في مرضاة ربه، وأملاً في الفوز بثوابه، وما أعدَّ للصابرين.

وللصبر حقيقة وجوهر:

أما حقيقة الصبر: فهي التثبت وعدم الجزع عند شدة الامتحان.

وأما جوهر الصبر: فهو طاقة كامنة داخل كيان نفس المؤمن **«قوة احتمال»** بمعنى أنه يحتمل شيئًا وهو له كارهٌ، فتجتمع قوة الاحتمال للنفس مع الكراهية في آن واحد طمعًا في الفوز بثواب الله ورضوانه وما أعدّ للصابرين.

وحينما أمر الحق تعالى أحبابه المؤمنين بالتثبت والتسلح عند اشتداد الخُطوب وفظاعة الكروب بنزول البلاء: أمرهم بالاستعانة بشيئين:

١- الصبر.

٢- الصلاة.

﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]

وقد يسأل سائلٌ لِمَ قُدِّم الصبرُ على الصلاة على الرغم من أن الصلاة ركن من أركان الإسلام، والصبر فضيلة، أي خصلة يتحلى بها المؤمن؟

قلت لك: لأنّ الصلاة نفسها تحتاج إلى صبر، إنْ لم يكن فيها صبر فلا صلاة.

وقد وضع الحق تعالى مقادير للأعمال في قاعدة الوجود: الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

إلا الصبر: لم تدركه وحدات القياس الثلاث: الكيل والوزن والمساحة جميعها لم تدرك الصبر. فقال الحق سبحانه مطلقًا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

والصبر ثلاثة أنواع:

١- **صبر البلاء:** كما هو الحال في أيوب عليه السلام ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، هذه صرخة الاستغاثة بقيوم السموات والأرض: الله لا إله

إلا هو، وإعلان بنزول البلاء به. وقد سجّل القرآن العظيم سرعة الغوث والمدد من الله عز وجل، وعنايته بالصابر وسُبُل العلاج: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ [ص:٤٢].

ومن الثابت أن أيوب بصبره وثباته مع قسوة البلاء، استحق ثناء الرب عليه ومدحه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝٤٤﴾ [ص: ٤٤].

٢- **صبر الرجاء:** كما هو الحال في يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يوسف:٨٣]. وكان من ثمرته، أن ردَّ الله تعالى عليه أولاده وبصره، وولاية يوسف عليه السلام مُلك مصر.

٣- **صبر الثبات:** كما هو الحال في محمد ﷺ وهو صبر أولي العزم من الرسل: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]. فثبت على إيذاء قومه، حتى منَّ الله عليه وأيّده بنصره وتمّ له الفتح.

وقد قسم الإمام علي - كرّم الله وجهه - الصبر في منهج الأمة إلى ثلاثة أنواع أيضًا:

١- صبرٌ على المصيبة حتى لا نسخطها.

٢- صبرٌ على الطاعة حتى نؤديها.

٣- صبرٌ على المعصية حتى لا نقع فيها.

والصبر ارقى من الشكر: إذ الشكر يستوجب الزيادة: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم:٧]. أمّا الصبر فيستوجب حبّ الربّ لعبده الصابر: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦]، ويستوجب معيّة الرب لعبده الصابر: بمعنى أنّ الله تعالى مع عبده الصابر حيثما كان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

ويستوجب صلاة الرب على عبده الصابر ونزول رحمته به دنيا وآخرة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

أمّا الشكر: فهو إقرار القلب واللسان (بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله)، عرفانًا بجميل المنعم عزّ ثناؤه، أنّه صاحب النعم وواهبها لمستحقيها، وأنه تعالى المستحق للثناء الجميل على كل جميل، ولا يشكر إلا من علم، والمعرفة أصل كل شيء، والعلم والمعرفة هما حدّا الشكر فالعلم بحقيقة وجود المنعم ومعرفة جلال صفاته التي بها يتم الإنعام، شكر على النعم. وقد عاب الحقُّ تعالى على من جحدوا النّعم ودعاهم للنظر فيما حولهم من سموات وأرض ونعم لا تُحصى ولا تُعد فقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان:٢٠].

وعن بيان عجز الخلق عن حصر نعم الحقّ سبحانه، قرّر التنزيل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]، وعن إثبات أنّ النعم بيد المنعم، وأنه سبحانه مالكُها ومعطيها من يشاء قرّر التنزيل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]. فثبت بذلك أنّ النعم جميعها من الله، وهي في خزائنه التي لا تنفد، وينزل منها بقدر ما يستحق كل عبد مُنعم عليه، وكل نعمة منّ الله تعالى بها على عبدٍ وجب عليه أنْ يؤدي شكرها، فإن أدّى العبد شُكرها وجب له على الله تعالى الزيادة: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [ابراهيم:٧]. فالزيادة مقابل الشكر لله عزّ شأنه، قاعدةٌ أقرها القرآن العظيم كما هو مثبت. وجاء في الخبر: (وما أنعم الحقّ تعالى على عبدٍ نعمةً فأدّى شكرها إلا كان حقًّا على الله تعالى أنْ يبدله خيرًا منها). وهكذا. وكلما شكر العبد زاد الربُّ سبحانه.

والشكر: واجب على العبد في كل حال، أعني في السرّاء والضرّاء، في العطاء والحرمان، في المرض والصحة، في القوة والضعف، في الغنى والفقر، فلربما أعطاك فمنعك، ولربما منعك فأعطاك، فقد يكون العطاء قمّة المنع، وقد يكون المنع قمّة العطاء، لأنّ العطاء قد يكون سبب شقاء العبد في الدنيا وحرمانه من رضوان الله الأكبر يوم القيامة. فهنا العطاء نقمة وليس نعمة.

ومن أسباب المنع الذي هو عطاء للعبد في الوقت نفسه أنه لو أعطاه لكان سببًا لغفلة العبد وبعده عن الخالق سبحانه، فلا يؤدي حقه، ولا يقر بشكره.

وقد يكون المنع قمة العطاء لأنه يحقق سعادة العبد الأبدية، إذْ بالحرمان يزيد قربًا من المليك، يؤدي حقه، ويداوم على ذكره وشكره، فلا عطاء يفتتن به، فيسبب بعده عن ربه، فينال بصبره وشكره أعلى الدرجات ويحل عليه رضوان الله الأكبر دنيا وآخرة: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١].

وقد اقترنت ثلاثةٌ بثلاثةٍ، لا تُقبل واحدة منها بغير الأخرى:

١- **الصلاة بالزكاة**: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣].

٢- إطاعة الله تعالى، بإطاعة الرسول ﷺ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة:٩٢].

٣- شكر الله عز وجل، بشكر الوالدين: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤].

والشكر مقام العارفين، وعُدّة السالكين، وزاد الناسكين. وحينما مَنَّ الحق تعالى على العبد الصالح لقمان بالحكمة، أمره بالشكر، فقال عز ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:١٢].

وما غرق أهل سبأ وهلكوا إلا بإعراضهم عن الشكر فيما سجّله عليهم القرآن العظيم: ﴿لَقَدْ

كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ:١٥] . فإذا أنعم الله تعالى على قوم أو قرية برزق من فضله استوجب شكر أهلها لله على ما أنعم به، ولكنهم أكلوا رزقه وعبدوا غيره، وجحدوا نعمه ولم يؤدوا شكره: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ:١٦] .

فثبت أنّ عدم الشكر يستوجب تبديل النعم، إن لم يكن زوالها بالجملة. وإرسال السيل على أهل الجحود على غير عادة، الذين لم يؤدّوا شكر النعم لمُنعمها جلّ وعلا.

وأيضًا إبطال الجنّات، وهي الحدائق التي تنبت أجود الشجر، وأطيب الثمر، بجنات تنبت أردأ الشجر وأسوأ الثمر، مما يسبب غُصَّةً لآكله، فيتحسر على ما فرط في جنب الله سبحانه ندمًا، وهيهات أن يفيد الندم.

وقد بيَّن سبحانه أنّ أهل الشكر قلة، وأمر آل داود بملازمة الشكر، بل يجب أن يكون عملهم الأساسي شكرًا للمنعم الذي علّمهم الصناعات، وسخر الجنّ لهم لعمل ما يشاءون من الصناعات التي لا يقدرون على صياغتها، وهذه الصناعات جميعها نِعم، مقابل صنعة واحدة منكم هي الشكر للمنعم سبحانه: ﴿اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] .

وقد اقترن طلب الرزق بعبادة الله عز وجل بالشكر، دلالةً على أنه دعامة في العبادة، ومقام سام من مقاماتها.

كما اقترن بأعلى مقامات العبادة وأجلّها ألا وهو الذكر دلالةً على رفعة مكانته: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢] .

فمن لم يذكر ويشكر، يكفر. والفتور عن الذكر والشكر كفر. ومن أعلى درجات التكريم من الحق جلّ وعلا للشكر، أنْ افتتح به خمس سور من سور القرآن العظيم هي:

١ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] فأتت أوّل إشراقة في استهلال الكتاب، الحمد والثناء للخالق الوهّاب.

٢ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١] .

٣ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف:١] .

٤ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ:١] .

٥ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر:١] .

وقد ورد الشكر في مواضع كثيرة من آيات التنزيل. ويكون الشكر مقترنًا مع الصبر، فيصلاً

بين الكفر والإيمان عند اشتداد البلاء في قوة الامتحان بنزول الخطوب وشدة الكروب والمكايد، لما سجله القرآن على لسان نبي الله سليمان عليه السلام. ومن أعلى مراتب تكريم الشكر، أنَّ الحقّ تعالى كما جعله فاتحةً للكتاب، جعله أيضًا ثناء أهل الجنة على صدق وعده إياهم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر:٧٤]. وجعله أيضًا آخر دعائهم: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

- ١٩ -

الخوف والرجاء

الخوف: هو شعور ينتاب الإنسان تحذيرًا بقدوم مكروه ينزل به عقوبةً له على فعل قبيح صدر منه قبل خوفه، فالخوف رد فعل الفعل للعبد. وقد ينزل المكروه الذي هو مبعث الخوف عاجلاً أو آجلاً دنيا أو آخرة.

والخوف ثلاثة أنواع:

اثنان منها يحدثهما العبد ويكون سببًا في نزولهما به، وهما:

١- خوف من العبيد مثله:

بأن يفعل بهم أفعالاً منافيةً للدين والأخلاق فتستوجب إنزالهم العقاب به ردّ فعل الفعل؛ فإنَّ الجزاء من جنس العمل.

وهذا الخوف يلازم العبد في حياته الدنيا، في حركاته وسكناته، يقظةً ونومًا، وينشأ على أثره الاضطراب والقلق وعدم الطمأنينة والاستقرار، فتفسد حياته ويضل سعيه، ويظل الخوف شبحًا يطارده. وعلاج ذلك ردُّ الحقوق إلى أصحابها، والاستقامة بطيب الأفعال وطلب العفو من أهل المظالم، يذهب الخوف ويحلّ الأمن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام:٨٢].

وللوقاية من مثل هذا الخوف دائمًا يطبق هذا المنهج: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]. فمقابلة السيئة بالحسنة تُذهب الخوف، وتبدّل العداوة الشديدة إلى صداقة حميمة، أي وفية رحيمة. وفرقٌ بين أنْ تبيت لك لا عليك فلا خوف ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف:٨٨].

٢- النوع الثاني من الخوف:

الذي يُحدثه العبد لنفسه في الدنيا ولا يقع مكروهه إلا في الآخرة، هو أنْ يسرف في ارتكاب الذنوب وفعل المعاصي في حياته الدنيا، فيستوجب عذاب الله عزّ شأنه له بالنّار في الآخرة.

فهو الخوف من المعاصي، فإنها مجلبةٌ للمكاره دنيا وآخرة. وأصعب مكروه للمعاصي أنها تودي بصاحبها إلى مستقر النار، وغضب الجبار.

ولعلاج ذلك الخوف، إليك الآتي:

الإقلاع عن الذنوب، وترك المعاصي، وسرعة المبادرة بتوبة صادقة نصوح لا عودة بعدها للكفر والعصيان، يصاحبها الندم على ما مضى، والعزم على عدم العودة فيما بقى. ولا تستعظم ذنبك على رحمة ربك فهو القائل ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

٣- النوع الثالث من الخوف:

خوف تمثّل النفوس، ويعرف بالخوف من العاقبة، أي الخوف مما هو آت. فإنّ الإنسان يستغرق طويلًا بين الحين والحين تتمثل نفسه ما سيكون عليه حاله عند الرحيل من دار الفناء. وما بعد الرحيل، تتمثل سكرات الموت وشدّته، سؤال منكر ونكير، وكيف الجواب؟ عذاب القبر، وحشته، ظلمته، وحدته، حَيَّاته وعَقاربه، الخوف من هول المحشر، هيبة الموقف بين يدي جبار السموات والأرض، والحياء من كشف الستر يوم تكشف الأسرار، الخوف من الصراط وحدّته، وكيفية العبور عليه، الخوف من النار وأغلالها، الخوف من الحرمان من الجنة دار النعيم المقيم، كل هذه أمور تتمثل للنفس، وتقلق أهلها، وتجلب لها المخاوف التي تؤدي إلى سقمها وبؤسها، وينغّص على النفس عيشها، ويسبب يأسها.

وعلاج ذلك جميعه الآتي:

١- الإيمان بالله مبدع الأكوان عزّ ثناؤه، والاستقامة له بالقلب واللسان والجوارح في القول والعمل. فإنّ هذا هو السبيل لذهاب الخوف والحزن لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

٢- ولذهاب الخوف عند سكرات الموت، أيضًا الإقرار لله تعالى بالوحدانية يتبعه استقامة القلب واللسان والجوارح في الأقوال والأفعال، يساوي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]. فإنّ نزول الملائكة هذا يكون في سكرات الموت وعند النزع.

٣- لتخفيف شدة الموت: المحافظة على الصلوات، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وإيتاء ذي القربى واليتامى والمساكين، واجتناب الزنا، والفواحش ما ظهر منها وما بطن. وأذكر حينما احتضر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، جاءته عائشة، وقالت:

لَعمرُك ما يُغني الثَّراءُ عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصَّدرُ

فكشف رضي الله عنه وجهه وقال: ليس هكذا، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق :١٩] .

والمعنى في بيت عائشة: أنَّ كثرة المال لا يمكن أنْ تمنع صاحبها من الموت، وأنّ الغني والفقير والعظيم والحقير في الموت سواء، حتى ولو كان أبو بكر الصديق حبيب رسول الله ﷺ، سِمَةُ العدل والسماحة، ورمز البذل و العطاء الذي أنفق ماله جميعًا في سبيل الله، ولما سُئل ماذا تركت لأولادك؟ قال: تركت لهم الله ورسوله.

أما المعنى في الآية الكريمة: أنّ الناس في الحياة غافلون، نسوا الموت وأهملوه، وأضاعوا العمر ولم يعملوا له، وها هو بسكرته الحقّ لا يمنع منه مالٌ ولا ولدٌ، وكان الإنسان في حياته يعلم أنَّ الموت حقّ، ولكنه يحيد عن هذا الحق، أي يميل إلى الدنيا وهي باطلة زائلة. . . وفي بيان زهده في الدنيا حتى في الكفن الجديد منها، نجد أنه يوصي أصحابه رضي الله عنهم: «**انظروا ثوبيَّ هذين فاغسلوهما وكفّنوني فيهما، فإنَّ الحي أحوج إلى الجديد من الميت**».

ولما دخلوا عليه قالوا: ألا ندعو لك طبيبًا ينظر إليك؟ قال: «**قد نظر إليّ طبيبي وقال: إني فعّال لما أريد**». والمعنى لا طبيب فإنَّ أمر الله تعالى نافذ، إذا أراد لا رادَّ لأمره فإن أراد الشفاء شُفِي بغير طبيب.

ودخل عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه يعوده، فقال: يا أبا بكر أوصنا. فقال: إنَّ الله تعالى فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذ منها إلا بلاغك. واعلم أنَّ من صلى صلاة الصّبح فهو في ذمة الله فلا تخفرنَّ الله تعالى فيكبّك في النار على وجهك.

ولما ثقل أبو بكر رضي الله عنه في مرضه وأراد الناس منه أنْ يستخلف فاستخلف عمر رضي الله عنه فقال الناس له: استخلفت علينا فظا غليظا فماذا تقول لربك؟ فقال: أقول استخلفت على خلقك خير خلقك ثم أرسل إلى عمر رضي الله عنه فجاء عمر، فقال أبو بكر: إني موصيك وصيةً: اعلم أنّ لله تعالى حقًّا في النهار لا يقبله بالليل، وأنّ لله عزّ شأنه حقًّا بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه سبحانه لا يقبل النافلة حتى تُؤدَّى الفريضة. وإنما ثقُلت موازين من ثقُلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقلت عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أنْ يثقل. وإنما خفت موازين من خفَّت موازينهم يوم القيامة، باتّباع الباطل وخفَّت عليهم، وحقٌ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أنْ يخفّ. وإنَّ الله تعالى ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فيقول القائل: أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء، فإنَّ الله تعالى ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم وردّ عليهم صالح الذي عملوا، فيقول القائل: أنا أفضل من هؤلاء

وإنَّ الله تعالى ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغبًا راهبًا ولا يلقي بيديه إلى التهلكة . ولا يتمنى على الله غير الحق، فإن حفظت وصيتي هذه، فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بدّ لك منه، وإنْ ضيَّعت وصيتي فلا يكون غائبٌ أبغض إليك من الموت ولا بد لك منه، ولست بمعجزه .

وقال سعيد بن المسيَّب: لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه أتاه أناسٌ من الصحابة فقالوا : يا خليفة رسول الله ﷺ زوِّدنا فإنّا نراك لما بك . فقال أبو بكر : من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله تعالى روحه في الأفق المبين . قالوا : وما الأفق المبين؟ قال : قاعٌ بين يدي العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار يغشاه كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا القول جعل الله تعالى روحه في هذا المكان . وإليك القول والكلمات التي بها تنال هذا المقام :

(اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم، ثم جعلتهم فريقين، فريقًا للنعيم وفريقًا للسعير، فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير . اللهم إنك خلقت الخلق فرقًا وميّزتهم قبل أنْ تخلقهم، جعلت منهم شقيًّا وسعيدًا وغويًّا ورشيدًا، فلا تُشقني بمعاصيك . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا محيص لها ممّا علمت، فاجعلني ممّن تستعمله بطاعتك . اللهم إنَّ أحدًا لا يشاءُ حتى تشاء، فاجعل مشيئتك أنْ أشاء ما يقربني إليك . اللهم إنك قدَّرت حركات العباد فلا يتحرك شيءٌ إلا بإذنك، فاجعل حركاتي في تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر، وجعلت لكل واحد منهما عاملاً يعمل به، فاجعلني من خير القسمين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلاً، فاجعلني من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم، فاشرح صدري للإيمان وزينه في قلبي . اللهمّ إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك، فأحيني بعد الموت حياة طيبة، وقربني إليك زلفى . اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك، فأنت ثقتي ورجائي ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال أبو بكر رضي الله عنه : هذا كله من كتاب الله عزّ وجل .

وفي وصية أبي بكر رضي الله عنه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وإلى الصحابة رضوان الله عليهم خير الزاد للاستعداد للموت، وإلى يوم الميعاد . فطوبى لمن علم فعمل، وحفظ فوعى، ولزم فنجا .

والقبر هو أول منزل من منازل الآخرة، فإن كان نزله يسيرًا، كان ما بعده أيسر .

٤- **وللأمان في القبر:** العمل الصالح، والكلم الطيّب، واجتناب الغيبة والنميمة، ورد المظالم إلى أهلها، وعفو أصحابها .

٥- للتثبت عند سؤال (منكر ونكير) : قول ثابت في الحياة الدنيا : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧] .

فالإيمان بالله عزّ شأنه، والقول الثابت، أي طيب القول. والثابت: أي الذي لزم منهج الحق تعالى وجاء منبعه من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ فكل كلمة حق هي كلمة ثابتة، لا زور ولا غيبة ولا نميمة، فجميع قولهم كان حقًّا ونصحًا وذكرًا وإرشادًا وإصلاحًا ثبتوا عليه في حياتهم الدنيا، فكان حقًّا على الله تعالى، أن يثبتهم على الجواب عند سؤال الملكين في القبر: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧] .

٦- **عذاب القبر:** لا يقع إلا على الفجار الذين طغوا في حياتهم الدنيا ونسوا الله فأنساهم أنفسهم. أمّا الأبرار فلا عذاب عليهم لا في القبر ولا في غيره ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣-١٤] .

٧- **لوحدة القبر ووحشته وظلمته:** أمّا الوحدة والوحشة فالعمل الصالح خير أنيس. وأما الوحشة والظلمة فقراءة القرآن، وأداء الصلاة وذكر الله تعالى. لا وحشة ولا ظلمة في القبر مع من حافظ على هذه الثلاثة. القرآن خير جليس لا يمل حديثه وترداده يزداد في تجملا، وحيث الفتى يرتاع في ظلماته من القبر، يلقاه سنًا متهللاً.

والصلاة نور في الوجه، وفي القبر، وعلى الصراط. وجاء في حديث الرسول الأعظم ﷺ: **«الطهور شطر الإيمان، وسبحان الله تملأ الميزان، والصلاة نور، والصبر ضياء، والصدقة برهان، والقرآن حجة لك أو عليك»** فطوبى لمن لزمها جميعًا وجعل القرآن العظيم حجة له لا عليه.

٨- بقي علاج الخوف من الحرمان من الجنة و الأجر والثواب وغيرها. . .

من الثابت أنّ الحرمان من النعم في الدنيا لا يقع إلا بفعل المعاصي: فإن المعاصي تذهب النعم لقول رسول الله ﷺ: **«لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»**.

أمّا الحرمان من الجنة ومن الآخرة بالجملة فلا يقع إلا بالتكبر والفساد في الدنيا: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣] .

وهناك نوع من الخوف هو خوف المحبة، أي خشية المحبين انقطاع الصلة بينهم وبين محبوبهم الله جل وعلا. ويسمى خوف الصفوة: الملائكة والأنبياء والعلماء، ثم الأمثل فالأمثل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] .

ويعرف هذا الخوف بخوف الهيبة، والجلال، والمقام. أي الخوف من الله عز وجل، لله، وليس الخوف من عقوبة النار، أو الحرمان من الجنة، فمن عرف للمليك قدره، واستشعر

عظمته وجلاله، ورأى فيوضات تجلياته في أكوانه، خاف مقامه، وهاب سطوته، وخشي الحرمان من محبته.

ومن خوف الهيبة تسبيح الملائكة للخالق سبحانه، فيما حكاه القرآن عن حالهم مقترنًا بحال الرعد في أسمى معاني الخشية من القادر المقتدر سبحانه: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد:١٣].

ومن خوف الهيبة والمحبة، ما حكاه القرآن العظيم عن حال آدم وحواء بعد فعلهما الخطيئة بأكلهما من الشجرة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

فالخسارة هنا خسارة إفساد المودة وانقطاع الصلة، وانعدام الثقة، والبغض بعد الحب، والبعد بعد القرب. وهي أكبر خسارة فقدهما حب السمو الرباني، الذي خلقه بيديه وكرمه على سائر مخلوقاته بأن نفخ فيه من روحه.

ومن مثاله خوف الحبيب محمد ﷺ من انقطاع الوحي وانقطاع الصلة وشرف الرسالة، حينما انقطع ثلاث عشرة ليلة فأنزل الحق تعالى ما يثبت قلب نبيه بدوام الصلة والحب ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝﴾ [الضحى:١-٥].

ومن خوف الحب والهيبة خشية العلماء فيما حكاه القرآن من حال هيبتهم ﴿كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨] أي أن العلماء هم الأشد خشية من الله تعالى، لما عرفوا للخالق قدره، عظموه وقدسوا ذاته.

والخوف من الله عز وجل لجلال ذات الله يحمل على الكف عن المعاصي والذنوب حبًّا وشوقًا إلى علام الغيوب. والكف بسبب الخوف يحقق لصاحبه العفة، والعفة هي الكف عن مقتضى الشهوات، فإن تحققت العفة تحقق ما هو أرقى منها وهو الورع، لأن الورع هو الكف عن كل محظور والشبهة جميعًا. فإن تحققت التقوى نال صاحبها مرتبة الصِّديق، ومرتبة الصديق تتبعها مرتبة القرب والمجاورة للمليك، في ما حكاه القرآن عن حال أهله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر:٥٤-٥٥].

وخوف المقام هو خوف الصالحين من الأولياء والأصفياء. وقد توعد الحق تعالى من خاف مقامه – أي قدَّس ذاته وخافه بالغيب أن يأتي مقامًا سيئًا يغضب المليك في علو مقامه– فكلما راودته النفس أنْ يفعل أو يقترب من مقام فيه ريبة بفعل قبيح أو منكر امتنع تقديسًا لمقام ربه وخشية منه. ولهذا النوع جنتان: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦].

وأرقى أنواع الخشية، هو الخوف من هيبة الجليل بالغيب. ومن ثمرته قرب الجنة لصاحبه يوم العرض واللقاء: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝﴾ [ق: ٣١-٣٣].

وهذا النوع من الخوف من ثمرته أيضًا دخول أصحابه الجنة بسلام، أي بلا خوف من السؤال والحساب والعقاب: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤].

وأعلى ثمار الخوف بالغيب: دخول أهله الجنة بسلام مقترن بالخلود، أي سلام بلا خوف معه ولا خروج من الجنة أبدًا. وأمّا خوف المقام فثمرته أنْ يجنب نفس صاحبه العذاب؛ لأنه ينهاها عن الهوى. والهوى هو اتباع الشهوات وفعل المنكرات، فيقف خوفُ مقام جلال الرب عزّ شأنه، فيصلًا بين نفس صاحبه وهواها فينهاها، أي ينتصر بخوفه مقام ربه على هوى نفسه، فيجني ثمرة خوفه، وهي أنْ تكون جنة المأوى هي مستقره: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

ونلاحظ أن القرآن العظيم جاء بلفظ النفس، والنفس تعني الروح مع الجسد، أي أنه نهى روحه وجسده معًا عن هواهما بخوفه مقام ربه، فنال مرتبة الجنة مأواه. ويقرن خوف مقام الرب سبحانه بخوف الوعيد، وهو الخوف عند اللقاء يوم الوعيد، يوم الهول والفزع، وهما أحد أهداف تذكير القرآن العظيم لأهله فيما أمر الحق تعالى به حبيبه محمد ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وما حكاه عن أهل من حَسن الجزاء ومُنح العطاء الرباني لهم: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

والخوف من الله تعالى في الدنيا يحقق لأهله رضا الله عنهم يوم القيامة ورضاهم عنه، وخلودهم في الجنة أبدًا. وهذا هو حال: ﴿هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝﴾ [البينة: ٧-٨].

ومن الثابت أن الله تعالى لا يجمع على عبده خوفين ولا أمانين، فيما رواه الرسول ﷺ: عن رب العزة سبحانه: **«لا أجمعُ على عبدي خوفين ولا أمانين. فمن خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة ومن أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة»**.

والمعنى: من خاف الله تعالى لجلال هيبته وعظمته فاجتنب محارمه، وأدى أوامره في الدنيا، له الأمن في الآخرة: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وأمّا أمن العبد في الدنيا، فهو أن ينسى الربَّ سبحانه ويقسو قلبه فيتجرأ على فعل المعاصي فيفعل كل منكر ولا يؤدي ما أمر الله به، فحقًّا على الله تعالى أن يذيقه أبشع صنوف الخوف

وأشد صنوف العذاب في الآخرة: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد :٢٥] .

ولقد جاء الخوف من الله عز وجل الدعامة الأولى في حدود التقوى حين عرّفها الإمام عليّ كرم الله وجهه: بقوله: التقوى هي:

١- الخوف من الجليل.

٢- والعمل بالتنزيل.

٣- والرضا بالقليل.

٤- والاستعداد ليوم الرحيل.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة :٨] .

ثانيا الرجاء:

الرجاء: هو طمع المحب في تحقيق شيء عند محبوبه، قد يتحقق، وقد لا يتحقق، كما هو الحال في الخليل إبراهيم - عليه السلام - فيما سجله القرآن على لسانه: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء :٨٢] . فهو يطمع رجاء وليس إلزامًا.

فمن الرجاء زيادة العشم و الشفاعة والظن. فزيادة العشم تنشأ عن زيادة المحبة وعلى اختلاف درجات المحبين. وكما بيّنا أنَّ المحبة تسبقها المعرفة، والمعرفة يسبقها العلم. والمعنى: أنه لا يحب إلا من عرف، ولا يعرف إلا من علم، وبقدر مقام المحبة تكون درجة عشم المحبين، والعشم رجاء المحبين.

أما الشفاعة: فهي جاه المصطفين. والاصطفاء قد يكون لنبي أو لوليٍّ أو لصفوةٍ (جماعة) كما في قوله عز ثناؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران :٣٣] . هذه صفوة من الأنبياء والشفاعة قد تكون فيهم أو في ذريتهم.

والاصطفاء للولاية كما هو الحال في الصدّيقة مريم ابنة عمران: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)﴾ [آل عمران: ٤٢] .

أمّا الاصطفاء من العباد، فكما هو الحال في ورثة الكتاب ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر :٣٢] .

والشفاعة للمصطفين وهي منحة من الله عز وجل، وهي تثبت لمن يشاء الله تعالى، ويأذن له: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة :٢٥٥] .

والشفاعة من جملة الرجاء، والرجاء في الشفاعة هو جاه المصطفين الأخيار. ولا تقع الشفاعة إلا بإذن ورضا قيوم السموات والأرض يوم العرض واللقاء: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا

مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه :١٠٩] . وبقدر رجاء الأصفياء يكون رجاء الشفاعة .

وقد يقع الاصطفاء في عباد الله دون الأنبياء كما هو الحال في ورثة الكتاب : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر :٣٢] .

والظنّ أيضًا جزئية من الرجاء . فمن أحسن الظنَّ أحسن العمل ، ومن أحسن العمل ، جاز له الرجاء ، وجاء في الحديث القدسي قول الحق تعالى : «**أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه ما ذكرني وتحرّكت بي شفتاه**» . والظن الحسن يحقق لصاحبه الرجاء وحسن العاقبة وخير الجزاء .

والظن السيئ يصل بصاحبه إلى مرتبة اليأس والقنوط من رحمة الله عز ثناؤه . وقد قال الله تعالى عن قوم أساءوا ظنهم بربهم فأرداهم : ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [فصلت :٢٣] . فهذا تحذير من سوء الظن بالله عزَّ وجل . فمن يظن يجعل الطمع في رحمته تعالى يغلب على الخوف من التردي إلى سواء العاقبة تحت قاعدة : ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦] .

فليغلب طمعكم في رحمة الله وهي قريبة من كل محسن ، على خوفكم من عقابه ، وهو قريب من كل مسيء سيئ الظن بربه .

وأكبر دعامات حسن الظن بالله عز ذكره ، قول الحق سبحانه : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر :٥٣] .

والحقيقة أن الرجاء هو أعلى مراتب الدواء لمن غلب عليه اليأس فيترك العبادة ، ولمن غلب عليه الخوف فأسرف في العبادة حتى أضرّ بنفسه وأهله . فالرجاء بمثابة الاعتدال فلا يأس يؤدي إلى القنوط . ولا خوف يؤدي إلى الهلاك للنفس والأهل . وخير الأمور الوسط . وحسبُ أهل اليأس والقُنوط ، قول الحيّ الذي لا يموت سبحانه : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد :٦] ، ولم يقل على أجسادهم ، ومما يسعد به المؤمن قول الرسول ﷺ : «**حياتي خيرٌ لكم ، وموتي خيرٌ لكم . أمّا حياتي فأسنُّ لكم السُّنن وأشرع لكم الشرائع . أمّا موتي فإنّ أعمالكم تُعرض عليّ فما رأيت منها حسنًا حمدتُ الله تعالى عليه ، وما رأيت منها سيئًا استغفرت الله تعالى لكم**» .

وفي الخبر: (إذا أذنب العبدُ ذنبًا فاستغفر الله تعالى ، يقول الله عز وجل للملائكة : انظروا عبدي أذنب ذنبًا فعلم أنَّ له ربًّا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب ، أشهدكم أني قد غفرت له) .

وفي الخبر أيضًا: (لو أذنب العبدُ حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له ما استغفرني ورجاني) . ومن سَعَة رحمة الخالق سبحانه قوله : (لو لقيتني عبدي بقراب الأرض خطايا : لقيتُك بقراب الأرض مغفرة) . وروى أنس في حديث عن النبي ﷺ أنه قال : (إذا أذنب العبد

ذنبًا كُتب عليه. فقال أعرابي: وإنْ تاب عنه؟ قال: مُحي عنه. قال: فإن عاد؟ قال ﷺ: **«يكتب عليه»**. قال الأعرابي: فإنْ تاب؟ قال: **«مُحي من صحيفته»**. قال الأعرابي: إلى متى؟ قال ﷺ: **«إلى أنْ يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل، والله لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار»**. فإنْ هَمَّ العبدُ بحسنة كتبها صاحبُ اليمين حسنةً قبل أن يعملها، فإن عملها كتبت عشر حسنات، ثم يضاعفها الله عزّ شأنه إلى سبعمائة ضعف. وإذا همّ بخطيئة لم تُكتب عليه، فإذا عملها كُتبت خطيئة واحدة، ووراءها حُسنُ عفو الله عز وجل).

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إني لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه، ولا أصلي إلا الخمس لا أزيد عليها. وليس لله في مالي صدقة، ولا حج ولا تطوع، أين أنا إذا مت؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: **«نعم معي، إذا حفظت قلبك من اثنتين: الغلّ والحسد، ولسانك من اثنتين: الغيبة والكذب. وعينيك من اثنتين: النظر إلى ما حرّم الله وأنْ تزدري بهما مسلمًا، دخل معي الجنة راحتيَ هاتين»**.

وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: **«ما خلق الله تعالى شيئًا إلا جعل له ما يغلبه، وجعل سبحانه رحمته تغلب غضبه»**.

وفي الخبر: أن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق: **«أنّ رحمتي تغلب غضبي»**.

وعن معاذ بن جبل، وأنس بن مالك، أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسّه النار، ومن لقي الله تعالى لا يشرك به شيئًا، حُرّمت عليه النار»**.

وفي الخبر: (لو علم الكافر سعة رحمة الله عز وجل ما آيس أحدٌ من جنته).

ولما قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١] قال لأصحابه: **«أتدرون أي يوم هذا؟ هذا يوم يُقال فيه لآدم عليه السلام: قُم فابعثْ بعثَ النار من ذريتك. فيقول: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة»**. فأبلس القوم وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن العمل والاشتغال. فخرج عليهم رسول الله ﷺ وقال: ما لكم لا تعملون؟ قالوا: ومن يعمل بعدما حدثتنا بهذا؟ فقال ﷺ: **«كم أنتم في الأمم؟ أين تأويل وثاريث، ومنسك، ويأجوج ومأجوج. أمم لا يحصيها إلا الله تعالى، إنما أنتم من سائر الأمم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود»**.

فانظر أيها الواعظ إلى فطانة النبي ﷺ سيد الوعاظ ومعلم العلماء كيف كان يسوق القوم بسيف الخوف أولاً حتى كادوا أن يبلغوا مرخلة اليأس، عاد بهم إلى ساحة الرجاء لله عزّ وجلّ.

فلما أرهبهم الخوف يئسوا وتوقفوا عن العمل دنيا وآخرة، فداواهم بعلاج الرجاء فردهم إلى الاعتدال، والقصد والأجر، يوافقها العمل.

وكل واعظ لا يراعي جانب الخوف والرجاء يُفسد بوعظه أكثر مما يُصلح. ومنهجية الدعوة رسمها الحق تعالى لكل داع: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي الخبر: (لو لم تُذنبوا لخلق الله تعالى خلقًا يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم).

وفي لفظ: (لذهبَ بكم وجاء بخلقٍ يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم).

ومما يبعث على الرجاء وحسن الظن أنَّ الله تعالى خلق الرحمة مائة جزء، فأنزل منها جزءًا إلى الأرض ومن فيها. فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق فيما بينها، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها أن يصيبه الضرر. فما بالك برحمة الله أرحم الراحمين، الذي أمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا يرحم بها عباده يوم القيامة.

وفي الخبر: أن الله تعالى يضم الرحمة التي نزلت إلى الأرض إلى التسع والتسعين رحمة الباقية عنده ثم يبسطها على جميع خلقه فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك.

ولقد بيّن رسول الله ﷺ أنَّ رحمة الله عز ثناؤه هي الأصل في دخول الجنة بقوله: **«ما منكم من أحد يُدخله الجنةَ عملُه ولا ينجيه من النار. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته»**.

فثبت أن رحمة الله عز وجل، هي معين الرجاء الذي لا ينضب ولا يأس معه ولا قنوط. فإنَّ رحمة الحيّ الذي لا يموت أكبر وأوسع من ذنوب العاصين.

أمّا الأخبار الواردة في فضل الرجاء فأكثر من أنْ تحصى.

وفي الأثر قال الإمام علي رضي الله عنه: (من أذنب ذنبًا فستره الله تعالى عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة، ومن أذنب ذنبًا فعوقب عليه في الدنيا فالله تعالى أعدل من أنْ يثني عقوبته على عبده في الآخرة).

وقال سفيان الثوري: (وما أحبُّ أنْ يُجعل حسابي إلى أبويَّ، لأني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما).

وقال إبراهيم بن ادهم: خَلا لي الطواف في ليلة كانت مطيرة مظلمة، فوقفت في الملتزم عند الباب وقلت: يا ربّ اعصمني حتى لا أعصيك أبدًا. فهتف بي هاتف من البيت: يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي المؤمنين يطلبون مني ذلكِ. فإذا عصمتهم فعلى من أتفضّل؟ ولمن أغفر؟.

وفي حديث ربعي بن حراش، عن أخيه - وكان من خيار التابعين، وهو ممن تكلموا بعد الموت - قال: لما مات أخي سُجِّيَ بثوبه وألقيناه على نعشه، فكشف الثوبَ عن وجهه واستوى قاعدًا وقال: إني لقيت ربي فحيّاني بروح وريحان. وربيّ غير غضبان. وإني رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تفتروا. وأن محمدًا ﷺ ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم. قال: ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت في طشت. فحملناه: ودفنّاه واسترجعنا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦].

وقال يحيى بن معاذ في مناجاته: يكاد رجائي لك من الذنوب يغلب رجائي إياك من الأعمال، لأني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف. وأمّا في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟.

وقيل إن مجوسيًّا حلَّ ضيفًا على الخليل إبراهيم عليه السلام فقال له الخليل: إن أسلمت أضفتك: فأبى المجوسي ومرّ. فأوحى الله تعالى إلى الخليل: (يا إبراهيم، لَم تطعمه إلا بتغير دينه، ونحن هنذ سبعين عامًا نطعمه على كفره). فانظر إلى سعة رحمة الله أرحم الراحمين.

- ٢٠ -

القناعة والعفة

اولا - القناعة: مثل الرضا، إلا أن الرضا تسليم، والقناعة غنى فمن يقنع بما رزقه الله عز وجل فهو أغنى الأغنياء.

والقناعة فضيلة محاطة برذيلتين: الطمع والجشع. والجشع هو الشراسة في الطمع وهي ضدهما. ومن ثمراتها أنها تورث صاحبها الزهد والطمأنينة والثقة بنفسه، نابعة من ثقته بربه، أنه تعالى: مبدع الأكوان، خالق الإنس والجان، ومقدر الأرزاق والآجال. وجعل الأنفاس معدودة في أماكن محدودة، لقوله عزّ ثناؤه: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم:٨٤]. وجعل الأجل محتومًا، والرزق مقسومًا، والحال لا يدوم. والكل يفنى ولا يبقى إلا الله الحي القيوم. فمن وقر في قلبه هذا اليقين، قنع بأن أمره ورزقه بيد القوي المتين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨]. تحت قاعدة من كان رزقه على الله عز وجل، فلا يحزن.

وفي الأثر عن فضل القناعة: أن وفدًا مكونا من ثلاثة عشر رجلًا وغلامًا قدموا إلى رسول الله ﷺ من اليمن، فلما فرغوا أعطى كل واحد منهم جائزة كعادته ﷺ في تكريم الوفود. وبعد أن أعطاهم جميعًا الجوائز سألهم: «**هل بقي منكم أحد؟**» قالوا: غلام خلّفناه على رحالنا هو أصغرنا سنًّا. فاستدعاه رسول الله ﷺ ليأخذ جائزته. فقال الغلام: يا

رسول الله إن حاجتي ليست كحاجتهم وإن كانوا راغبين في الإسلام. والله ما أخرجني إليك إلا أن تسأل الله تعالى أن يغفر لي ويرحمني، وأن يجعل غنائي في قلبي. فدعا له الرسول الأعظم بذلك ثم أعطاه جائزته. وأخذ الجميع راجعين إلى اليمن. ثم وفد منهم ستة عشر إلى الرسول ﷺ بمنى في العام الثاني. فسألهم عن الغلام فقالوا: والله ما رأينا مثله قط، ولا حدّثنا بأقنع منه بما رزقه الله تعالى، حتى لو أن الناس اقتسموا الدنيا من حوله ما نظر نحوها، ولا التفت إليها. فقال رسول الله ﷺ وهو فرح ومسرور: «**الحمد لله، إنني لأرجو أن يموت جميعًا**». فقال رجل منهم: أو ليس الرجل يموت جميعًا يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**تتشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا، فلعل أجله أن يدركه في بعض تلك الأودية، فلا يبالي الله عز وجل في أيها هلك**».

ومعنى أن يموت جميعًا: أي يموت قلبه عن جميع شهوات الدنيا وزخارفها وعرضها الزائل.

والخلاصة: إنه ليس الغنى عن كثرة العَرَض، وإنما الغنى غنى النفس، وغنى النفس وهو قناعتها بأن رازقها خالقها الله عز وجل. والقناعة كنز لا يفنى.

ثانيًا العفة: العفة: هي اجتناب الرذائل، والترفع والتنزه عن النقائص، وضدها الدناءة، وهي فضيلة محاطة برذيلتين: الدناءة والفتور. فإنْ أسرف فيها صاحبها وصل مرتبة الفتور، وإن أحجم، مال إلى الدناءة.

ومن ثمراتها أنها تورث صاحبها الورع والحياء، مما يرفع قَدْرَهُ عند الخلق، وعند الحق عز ثناؤه. وهي ثمرة تنشأ من حقيقة الإيمان، فتكسو صاحبها حُلَل الثناء وسرعة إجابة الرجاء.

فالعفيف: يجتنب ما حرم الله عز وجل، ويكبح جماح النفس فيصدّها عن هواها ويمنعها من شهواتها الدنيئة، فيسعد بصدق الرجاء، وحسن الجزاء، يوم اللقاء، عند خالق الأرض والسماء.

وقد أمر الحق تعالى أحبابه الأبرار بالتعفّف في قوله عزَّ ثناؤه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

وما حكاه القرآن العظيم عن حال قوم من شدّة عِفّتهم مع شدة حاجتهم وفقرهم حياءً من ربهم حتى يكاد من لا يعرفهم يظن أنهم أغنياء لشدة تعففهم في قوله عز ثناؤه: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. والجاهل، أي الجاهل بمعرفتهم من قبل، يخيل إليه حينما يراهم لأول وهلة أنهم أغنياء من التعفف.

فما أسعد من ملك عَنان نفسه، وقبض على زمامها فإنه يأمن من الوقوع في مهاوي الردى ومواطن الهلاك، وما أشقى من ترك لنفسه العنان ففتحت باب المعاصي على مصراعيه،

وغرقت في شهواتها ولذاتها الزائفة، فله سوء المنقلب: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧] وفي فضل العفة، قال رسول الله ﷺ: **«من طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء»**. وقال ﷺ: **«أربع من كُنَّ فيه حرَّمه الله تعالى على النار وعصمه من الشيطان وهن: من ملك نفسه حين يرغب وحين يرهب، وحين يشتهي، وحين يغضب»**. وقال ﷺ: **«عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم»**.

والعفة: كبح جماح النفس عن شهواتها الرديئة وعدم السير وراء أطماعها الدنيئة.

- ٢١ -

البرّ والتقوى

البر: كلمة جامعة لشتى صنوف الفضائل، وكريم الصفات وطيب الأفعال.

والبرّ: هو جموع المكارم للسلوك في الأقوال والأفعال، والأخذ والترك، والمنع والعطاء، والأمر والنهي. والأبرار هم أعلى مراتب العُبَّاد. وبالمقابل هم في أعلى درجات الجنات عند الله عز وجل، في رياض الجنات يوم العرض والجزاء على خالق الأرض والسماء: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]. هذا ما أقره التنزيل عن حال الأبرار في الدار الآخرة وهي الباقية.

والبر هو الدعامة الأولى في أسباب زيادة الأجل لقول الرسول الأعظم ﷺ: **«لا يرد القضاءَ إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»**. وجاء في طلب المؤمنين في دعائهم وما يطمعون فيه عند ربهم ما حكاه عنهم القرآن العظيم من غبطة: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] أي توفَّنا بآجال مزيدة مثل آجالهم، واجعلنا في رياض الجنّات بجوارهم. وقد تعجب حين تعلم أن التقوى هي أعلى سمات المنهج الإسلامي، وبها درجات التفاضل بين الخلق عند الحق عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

ولها يجدّ المخلصون، ولتحقيقها يسعى السالكون، ولنيلها يرتع الناسكون. فمن سره أن يكون من أكرم الخلق عند الحق عز شأنه، فليحظ بالتقوى. وهي خير الزاد في قوله سبحانه حين أمر أحبابه المؤمنين بالتزود لم يأمرهم بالتزوّد بالمال أو الجاه أو السلطان، وإنما بالتقوى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وآيات التنزيل تزخر بالحديث عن التقوى وفضائلها. ومع هذا نجد أنها جزئية ضمن البر في قول الحق عز ثناؤه: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

فجاءت التقوى جزئية ضمن البر، أي لا ينال البر إلا تقي ولا ينال التقوى إلا بار. وتقديم البر على التقوى في الأمر الإلهي يجعلها تابعة له وجزئية من منهجه، إذ بها يتحقق البر.

والتقوى، هي أن تجعل بينك وبين عذاب الله تعالى وقاية. وكيف تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية؟ باجتناب ما نهى وأداء ما أمر. فطوبى للأبرار الأتقياء يوم العرض والجزاء.

وطوبى: هي شجرة في الجنة، ما من غرفة من غرف الجنات إلا وعليها غصن من أغصانها، وتحتها عين من الماء لا يدخل الجنة أحد حتى يغتسل فيها. وحينما يغتسل فيها تفتح له الملائكة الأبواب وتحييه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ [الزمر :٧٣] أي طهرتم.

- ٢٢ -

الإخلاص والصدق

الإخلاص: روح الأعمال ودرب الوصول، وباب القبول. وهو سر الله عز وجل، الذي أوقع قلب من أحبّ من عباده، ولا يتحقق بغير الصدق. وجوهر الإخلاص أن تتقرب إلى الله تعالى بالأعمال خالصة لوجهه الكريم بريئة من الرياء و النفاق.

وله مراحل تتبعها مراتب: أولها الفكر. فإذا كنت من المفكرين، فكن من المعتبرين. وإذا كنت من المعتبرين، فكن من المتمسكين. وإذا كنت من المتمسكين فكن من العاملين. وإذا كنت من العاملين فكن من المخلصين. فإن تحقق لك الإخلاص كنت ينبوعًا للفضائل وقدوة لأولى الهمم العالية. وبالإخلاص تنال الخلاص من الدنيا وهمومها، ومن الآخرة وهولها، وتنعم في رياض الجنات لأنك أخلصت فخلصت.

والصدق: هو ملازمة الحقيقة في الأقوال والأفعال دون تحريف أو تزييف، بأن تكون صادقًا مع نفسك، مع ربك، مع العبيد مثلك، وهو درب الأصفياء، وأحد دعامات البر: «**وإن الصدق ليهدي إلى البر: وإن البر ليهدي إلى الجنة، وإن الرجل لا يزال يصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**» فطوبى للمخلصين الصادقين.

- ٢٣ -

الحقيقة واليقين

الحقيقة: هي وصول النهاية، وبلوغ الغاية في المعرفة. أما اليقين: فهو صدق الاعتقاد، ودربه الفكر والذكر، يسبقهما الإسلام فالإيمان. فإن بلغ الذروة في الإيمان نال بالفكر والتدبر مرتبة اليقين، كما هو الحال في الخليل إبراهيم عليه السلام، حين أخذ يتدرج في البحث عن الحقيقة في الربوبية. كانت المرتبة الأولى بالنظر في الملكوت. وبالفكر في كيفية الصانع له: هل من جملة ما هو مشاهد أم لا؟

وقد سجل القرآن العظيم مراحل الاستدلال في منهجية الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام :٧٦] . فلما غاب الكوكب واختفى قال الخليل: لا يمكن أن يكون هذا ربًّا؛ لأن الرب ليست عادته أن يغيب.

وبالنظر إلى القمر أخذ يوليه اهتمامًا بالتفكر: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام :٧٧] ، وسرعان ما دار الفلك دورةً فذهب الليل وغاب القمر وجاء النهار وبدت الشمس كبيرةً في حجمها، وضَّاءة في نورها. وسرعان ما لفتت نظر الخليل إليها وجذبته ليعلن التخلي عن القمر لغيابه مثل سابقه الكوكب: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام :٧٧] .

ويتجه بنظره وفكره إلى الشمس وهي الأكبر: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ [الأنعام :٧٨] .

ولكن لم يستمر طويلاً إلا بقدر المدة الزمنية للنهار وبذهابه غابت الشمس، وهو ما جعل الخليل عليه السلام يعلن تبرأه منهم جميعًا. والكواكب كان يعبدها قومه من دون الله عز وجل، فريق يعبد الأصنام، وآخر يعبد الشمس والقمر، إلى آخر ما عبدوا من دون الله سبحانه، فيعلن نفوره من كل هذه الأشياء التي جعلوها آلهةً من دون الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام :٧٨] . ويعلن أن الخالق جل وعلا ليس من جملة هذا كله بقوله فيما سجله عليه القرآن: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام :٧٩] . وهنا إدراك اليقين.

وبعد أن استقر نوره في قلبه تبعه التفويض والتسليم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء :٧٨] إلى آخر ما سجله القرآن من يقينه وصدق اعتقاده في قول الحق عز ثناؤه: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝﴾ [الشعراء :٨٧-٨٩] .

واليقين ثلاثة أقسام هي:

١ - علم.

٢ - عين.

٣ - حقيقة.

فالعلم للسمع: وهي الأمور التي تؤخذ بالسماع من الصادق وهو الرسول ﷺ مصاحبة أو نقلاً عنه من الثقاة وعلم اليقين وظيفة السمع وآلته هي الأذن.

أما عين اليقين فهي رؤية الشيء بالبصر. فعين اليقين وظيفة البصر، وآلته هي العين.

وهناك يقين عين البصيرة، وهو رؤية القلب، وهو يقين الخواص والصفوة من العباد والأبرار.

وأما الحقيقة: فهي لذوق الشيء، فكلنا يعلم أن الموت حقيقة ولكن لا يعرف كيفية هذه الحقيقة إلا من ذاق الموت. وكذلك الجنة والنار حقيقتان، ولكن لا يعرف حقيقة الجنة إلا من سيدخلها بإذن الله تعالى، وبرحمته.

ولا يعرف حقيقة النار إلا من سيدخلها والعياذ بالله عز وجل. فالحقيقة أحد دعامات اليقين وهي جزئية منه، وصدق الحق إذ يقول: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٧-٨].

- ٢٤ -

العلم والعمل

أولا - العلم: هو الإدراك والمعرفة، والكشف بالبحث عن حقائق الموجودات وأسرار الكائنات.

وينقسم العلم باعتبار جوهره إلى قسمين:

١- **علم دنيوي:** ويشمل شتى فروع العلوم المتعلقة بالطبيعة والتي يتوصل الإنسان عن طريق البحث فيها إلى ما يبنى عليه أُسُس حياته ومقوماتها، نفعًا وضرًّا، وقاية أو دفعًا، عامة أو خاصة، مما ألهم الحق تعالى، الإنسان بنور العلم ووحي العقل.

ومنها الاختراع والابتكار والتطوير. وقد يخترع الإنسان أو يبتكر ما يفيد البشرية جمعاء ويسبب سعادتها ورخاءها، وقد يبتكر ما فيه فناؤها ويسبب شقاءها مثل الأسلحة الفتاكة والإشعاعات الذرية والنووية وغيرها من وسائل الخراب والدمار، على العكس ممن يخترع ويطوّر سبل البناء والعمار.

ويسمى هذا العلم بالعلم الزائل، أي الموقوت لأنه مرتبط ومتعلق بالدنيا، والدنيا كما نعلم مصيرها إلى زوال وفناء. ولا يغيب عنّا أن كلمة دنيا جاءت من الدناءة: وهو الشيء الوضيع الحقير. ودنيا من الدنو: وهو قرب الأجل فيها. والحق تعالى يقول: (يا دنيا من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه) وشتّان.

٢- **علم حقيقة:** وهو النافع دنيا وآخرة. ويشمل العقائد، ومعرفة الخالق عز شأنه، بذاته وصفاته وفيه صدق الاعتقاد بأن الله تعالى حق، وأنه سبحانه الخالق للكون وما فيه من الكائنات. ويشمل الإيمان بالله عز وجل وبالملائكة وبالكتب وبالرسل، وبالقضاء والقدر خيره

وشره، حلوه ومره، وأن الموت حق ورب الموت حق، والبعث من القبور حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، والقيامة حق، والجنة والنار حق، والثواب والعقاب واقعان لا محالة.

فالثواب للمحسنين وسبيله الجنة والعقاب للمسيئين وسبيله إلى النار. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

وعلم الحقيقة هو لمن وَقَرَ نورُ اليقين بالإيمان في قلوبهم فعملوا لدنياهم ما فيه حياة الكفاف حياة طيبة ومعينها الإيمان بالله والعمل الصالح: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. وأيضًا علموا فعملوا لأخراهم ما يحقق لهم السعادة والنعيم في قبورهم وفي رياض الجنات عند ربهم.

ثانيًا - العمل: وهو نوعان أيضًا:

١- **عمل دنيوي:** ويشمل السعي والكد في الحياة أخذًا بالأسباب لتحقيق سُبُل المعيشة ومقوِّمات الحياة الكريمة عملًا بقول رسول الله ﷺ: «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا مما يأكل من عمل يده**».

وقوله ﷺ: «**من بات كالًا من عمل يده بات مغفورًا له**». وقوله ﷺ: «**ليأخذ أحدكم قدومًا ويذهب فيحتطب بضعًا من الحطب فيبيعها فيقتات بثمنها خيرًا من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه**».

وخير قولٍ قولُ الحق عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

٢- **عمل اخروي:** وهو العمل لأجل الحياة الآخرة، ويشمل أداء الفرائض وإقامة الأركان، واجتناب ما نهى الله عنه، وأداء ما أمر به. وهؤلاء ينطبق عليهم علموا فعملوا: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وخلاصة الأعمال وثمرة العلوم ثلاثة:

١- الإيمان الغيبي.

٢- الإخلاص الجلي.

٣- الإحسان الخفيّ.

* * *

- ٢٥ -

الحق والباطل

الحق: اسم من أسماء الله عز وجل، سمى به نفسه وأمر به خلقه وقرنه في التواصي بالصبر: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

والحق، في عرف المعاملات للبشر، هو ما له واقع حسّي أو معنوي. فكل ماله واقع مطابق للقول والكيف والمقدار والمعنى، أعني قبوله بالمنطق العقلي فهو حق، أي حقيقة لا خيال.

أما الحق في عرف القضاء (القانون) لغةً: نصرة المظلومين.

وشرعًا: إعادة ما يسلب إلى أهله أي رد المظالم إلى أصحابها وضده الباطل. والباطل هو ما ليس له واقع حسّي أو معنوي. ويشمل التزييف والتغيير والتزوير والاختلاف، أي اختلاف ما ليس له واقع وافتعال الأشياء بزور القول ومنكر الفعل.

وبالجملة: الباطل هو ما لا يمت إلى الحقيقة بشيء. وهو درب الكفار وبه يعملون.

- ٢٦ -

الأمانة والعدل

الأمانة: صفة يتحلى بها الأبرار، فيؤدون الحقوق إلى أصحابها بمحض إرادة مَعينُها اليقين. وضدّها الخيانة: وهي صفة الجبناء الفجّار. ومن عظيم صنع المشرّع عز وجل، أن قدّم الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها على العدل فيما قرره التنزيل: قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]. أي لا يُنتصب القضاء إلى إذا ضاعت الأمانات. وإذا ضاعت الأمانات وغابت الضمائر، ونصب القضاء، وجب العدل. والعدل اسم من أسماء الله تعالى، سمّى به نفسه، وأمر به خلقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

وفي اللغة: الإنصاف.

وشرعًا: وضع الأمور في نصابها.

والأمانة: يقظة الضمير الأخلاقي فيما بين العبد وربه، بمعنى أنه متيقن ويعلم أنه إذا نامت كل العيون، فالحي القيوم عز شأنه لا يأخذه سنة ولا نوم. فطوبى للأمناء يوم العرض والجزاء.

* * *

فصول من حكمة الرسول

- ٢٧ -

الاستقامة

عن سفيانَ بنِ عَبْدِ الله الثَّقَفِيّ قَالَ: قُلْتُ «يا رَسُولَ الله، قُلْ لِي في الإِسْلَام قَوْلاً لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ. قَالَ: قُلْ: آمَنْتُ بِالله، ثُمَّ اسْتَقِمْ» رواه مسلم (١)

فهذا الرجل طلب من النبي ﷺ كلامًا جامعًا للخير نافعًا موصلًا صاحبه إلى الفلاح. فأمره النّبي ﷺ بالإيمان بالله الذي يشمل ما يجب اعتقاده من عقائد الإيمان، وأصوله، وما يتبع ذلك من أعمال القلوب، والانقياد والاستسلام لله، باطنًا وظاهرًا، ثم الدوام على ذلك، والاستقامة عليه إلى الممات. وهو نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

فرتب على الإيمان والاستقامة السلامة من جميع الشرور وحصول الجنة وجميع المحا، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة الكثيرة على أن الإيمان يشمل ما في القلوب من العقائد الصحيحة، وأعمال القلوب: من الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، وإرادة الخير، وكراهة الشر. ومن أعمال الجوارح. ولا يتم ذلك إلا بالثبات عليه.

- ٢٨ -

الدعوة إلى الهدى

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا إلى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأجرِ مِثْلُ أُجورِ مَنْ تَبِعَهُ، مِن غير أَنْ يَنْقص مِنْ أُجورِهِمْ شَيْئًا. وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْه مِنَ الإِثْمِ مثل آثامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقص ذَلِكَ مِنْ آثامِهِمْ شَيْئًا» رواه مسلم (٢)

هذا الحديث – وما أشبهه من الأحاديث– فيه: الحث على الدعوة إلى الهدى والخير، وفضل الداعي، والتحذير من الدعاء إلى الضلالة والغيّ، وعظم جرم الداعي وعقوبته.

والهدى: هو العلم النافع، والعمل الصالح. فكل من علَّم علمًا أو وَجَّه المتعلمين إلى سلوك طريقة يحصل لهم فيها علم فهو داع إلى الهدى. وكل من دعا إلى عمل صالح يتعلق بحق الله، أو بحقوق الخلق العامة أو الخاصة فهو داع إلى الهدى.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان (٣٨)، (٦٢): باب جامع أوصاف الإسلام.
(٢) أخرجه مسلم: كتاب العلم (٢٦٧٤) (١٦): باب من سن سنة حسنة أو سيئة.

وكل من أبدى نصيحة دينية أو دنيوية يُتَوَصَّلُ بها إلى الدين فهو داع إلى الهدى .

وكل من اهتدى في علمه أو عمله فاقتدى به غيره فهو داع إلى الهدى .

وكل من تقدم غيره بعمل خيري ، أو مشروع عام النفع فهو داخل في هذا النص .

وعكس ذلك كله الداعي إلى الضلالة .

فالداعون إلى الهدى هم أئمة المتقين ، وخيار المؤمنين .

والداعون إلى الضلالة هم الأئمة الذين يدعون إلى النار .

وكل من عاون غيره على البر والتقوى فهو من الداعين إلى الهدى .

وكل من أعان غيره على الإثم والعدوان فهو من الداعين إلى الضلالة .

- ٢٩ -

الجزاء من جنس العمل

عن أبي [(١)] صرمة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«مَنْ ضَارَّ ضَارَّ الله بِهِ، ومَنْ شَاقَّ شَاقَّ الله عَلَيهِ»** رواه الترمذي وابن ماجه [(٢)] .

هذا الحديث دل على أصلين من أصول الشريعة:

أحدهما: أن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر . وهذا من حكمة الله التي يحمد عليها . فكما أن من عمل ما يحبه الله أحبه الله . ومن عمل ما يبغضه أبغضه الله ، ومن يسر على مسلم يسر الله عليه في الدنيا والآخرة . ومن فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . والله في حاجة العبد ما كان العبد في حاجة أخيه ، كذلك من ضار مسلمًا ضره الله ، ومن مَكَر به مكر الله به ، ومن شق عليه شق الله عليه ، إلى غير ذلك من الأمثلة الداخلة في هذا الأصل .

الأصل الثاني: منع الضرر والمضارة ، وأنه **«لا ضرر ولا ضرار»** . وهذا يشمل أنواع الضرر كله .

* * *

(١) في المطبوعة : أبي حرمة . والتصحيح من مصادر الحديث

(٢) حسن : أخرجه أبو داود، كتاب : الأقضية (٣٦٣٥)، والترمذي، كتاب : البر والصلة، (١٩٤٠)، وابن ماجه، كتاب : الأحكام، الألباني في الإرواء (٣/ ٤١٤)، وصحيح الجامع (٦٢٤٨).

- ٣٠ -

شكر النعم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ. وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ تَزْدَروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ**». متفق عليه [1]، يا لها من وصية نافعة، وكلمة شافية وافية.

فهذا يدل على الحث على شكر الله بالاعتراف بنعمه، والتحدث بها، والاستعانة [2] بها على طاعة المنعم، وفعل جميع الأسباب المعينة على الشكر؛ فإن الشكر لله هو رأس العبادة، وأصل الخير، وأوجبه على العباد؛ فإنه ما بالعباد من نعمة ظاهرة ولا باطنة، خاصة أو عامة إلا من الله. وهو الذي يأتي بالخير والحسنات، ويدفع السوء والسيئات؛ فيستحق أن يبذل له العباد من الشكر ما تصل إليه قواهم، وعلى العبد أن يسعى بكل وسيلة توصله وتعينه على الشكر.

وقد أرشد ﷺ إلى هذا الدواء العجيب، والسبب القوى لشكر نعم الله وهو أن يلحظ العبد في كل وقت من هو دونه في العقل والنسب والمال وأصناف النعم. فمتى استدام هذا النظر اضطره إلى كثرة شكر ربه والثناء عليه. فإنه لا يزال يرى خلقًا كثيرًا دونه بدرجات في هذه الأوصاف، ويتمنى كثير منهم أن يصل إلى قريب مما أوتيه من عافية ومال ورزق، وخَلْق وخُلُق، فيحمد الله على ذلك حمدًا كثيرًا، ويقول: الحمد الله الذى أنعم عليَّ وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً.

فمن وفق للاهتداء بهذا الهدى الذى أرشد إليه النبي ﷺ لم يزل شكره في قوة ونمو، ولم تزل نعم الله عليه تترى وتتوالى. ومن عكس القضية فارتفع نظره وصار ينظر إلى من هو فوقه في العافية والمال والرزق وتوابع ذلك، فإنه لا بد أن يزدرى نعمة الله، ويفقد شكره.

ومتى فقد الشكر ترحلت عنه النعم، وتسابقت إليه النقم، وامتحن بالغم الملازم، والحزن الدائم، والتسخط لما هو فيه من الخير، وعدم الرضا بالله ربًا ومدبرًا. وذلك ضرر في الدين والدنيا وخسران مبين.

(١) الحديث بهذا اللفظ: أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٦٣) وأما الرواية المتفق عليها فهى بلفظ: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل الله عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه»، وهى عند البخاري، كتاب: الرقاق (٦٤٩٠).

(٢) في المطبوعة: الاستعانة.

ولما كان الشكر مدار الخير وعنوانه قال ﷺ لمعاذ بن جبل: «**إنى أحبُك، فلا تَدَعنّ أن تَقُولَ دُبر كُلّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَة: اللَّهم أعِنِى عَلَى ذِكرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[1] وكان يقول: «**اللهم اجعلنى لك شَكّارًا، لك ذَكّارًا. اللّهُمّ اجْعَلنى أُعْظِمُ شُكْرَكَ، وَأُكثِرُ ذِكرك، وأتّبِعُ نصْحَك، وَأحفَظُ وَصِيّتك**»[2].

وقد اعترف أعظم الشاكرين بالعجز عن شكر نعم الله، فقال ﷺ: «**لَا أُحْصِى ثَنَاءَ عَلَيْكَ، أنت كَمَا أثْنَيتَ عَلَى نَفْسِك**».

- ٣١ -

فضل الصبر والعفة

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَمَنْ يستَعْفِفْ يُعِفَهُ اللهُ. وَمَنْ يَسْتَغنِ يُغنِه اللهُ. وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ. وَمَا أُعْطِي أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَع مِنَ الصَّبْرِ**» متفق عليه[3].

هذا الحديث اشتمل على أربع جمل جامعة نافعة:

إحداها: قوله: «**وَمَنْ يستَعْفِفْ يُعِفّهُ اللهُ**».

والثانية: قوله: «**وَمَنْ يَسْتَغنِ يُغْنِه اللهُ**».

وهاتان الجملتان متلازمتان، فإن كمال العبد في إخلاصه لله رغبة ورهبة وتعلقًا به دون المخلوقين، فعليه أن يسعى لتحقيق هذا الكمال، ويعمل كل سبب يوصله إلى ذلك، حتى يكون عبدًا لله حقًّا حُرًّا من رق المخلوقين. وذلك بأن يجاهد نفسه على أمرين: انصرافها عن التعلق بالمخلوقين بالاستعفاف عما في أيديهم فلا يطلبه بمقاله ولا بلسان حاله. ولهذا قال ﷺ لعمر: «**مَا أتَاكَ مِنْ هَذَا المَال وَأَنتَ غَير مُشْرِفٍ وَلا سَائِلٍ فَخُذْهُ. وَمَالَا فَلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ**»[4]. فقَطْع الإشراف في القلب والسؤال باللسان، تعففًا وترفعًا عن مِنن الخلق، وعن تعلق القلب بهم سبب قوي لحصول العفة.

(١) صحيح: أخرجه أبو داود، كتاب: الصلاة (١٥٢٢)، باب: في الاستغفار، والنسائي، كتاب: السهو (٣/ ٥٣)، وإسناده صحيح. وصححه الألباني في تخريج الكلم الطيب (ص٧٠).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود، كتاب: الصلاة، (١٥١٠)، باب: ما يقول الرجل إذا سلم، والترمذي، كتاب: الدعوات (٣٥٥١)، باب: من أدعية النبي ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة (١٤٦٩)، باب: الاستعفاف عن المسألة. ومسلم، كتاب: الزكاة (١٠٥٣) (١٢٤)، باب: فضل التعفف.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة (١٤٧٣)، ومسلم كتاب الزكاة (١٠٤٥) (١١٠).

وتمام ذلك: أن يجاهد نفسه على الأمر الثاني: وهو الاستغناء بالله، والثقة بكفايته، فإنه من يتوكل على الله فهو حسبه. وهذا هو المقصود. فكلما قوي تعلقه بالله ضعف تعلقه بالمخلوقين وبالعكس.

ومن دعاء النبي ﷺ: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالعَفَافَ والْغِنَى»** [(1)] فجمع الخير كله في هذا الدعاء.

فالهدى: هو العلم النافع. والتقى: العمل الصالح، وترك المحرمات كلها. هذا صلاح الدين.

وتمام ذاك بصلاح القلب، وطمأنينته بالعفاف عن الخلق، والغنى بالله. ومن كان غنيًّا بالله فهو الغنيّ حقًّا. وإن قلّت حواصله. فليس الغنى عن كثرة العَرَض، إنما الغنى غنى القلب. وبالعفاف والغنى يتم للعبد الحياة الطيبة، والنعيم الدنيوى، والقناعة بما آتاه الله.

والثالثة: قوله: **«وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْه اللهُ»**.

ثم ذكر في الجملة الرابعة: أن الصبر إذا أعطاه الله العبد فهو أفضل العطاء وأوسعه وأعظمه إعانة على الأمور. قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة :٤٥] أى: على أموركم كلها، والصبر كسائر الأخلاق يحتاج إلى مجاهدة للنفس وتمرينها. فلهذا قال: **«وَمَنْ يَتَصَبَّرْ»** أي: يجاهد نفسه على الصبر **«يُصَبِّره اللهُ»** ويعينه.

وإنما كان الصبر أعظم العطايا؛ لأنه يتعلق بجميع أمور العبد وكمالاته وكل حالة من أحواله تحتاج إلى صبر فإنه يحتاج إلى الصبر على طاعة الله، حتى يقوم بها ويؤديها. وإلى صبر عن معصية الله حتى يتركها لله وإلى صبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسخطها بل إلى صبر على نعم الله ومحبوبات النفس، فلا يدع النفس تمرح وتفرح الفرح المذموم، بل يشتغل بشكر الله، فهو في كل أحواله يحتاج إلى الصبر. وبالصبر ينال الفلاح. ولهذا ذكر الله أهل الجنة فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]. وقد وعد الله الصابرين في كتابه وعلى لسان رسوله أمورًا عالية جليلة. وعدهم بالإعانة في كل أمورهم، وأنه معهم بالعناية والتوفيق والتسديد، وأنه يحبهم ويثبت قلوبهم وأقدامهم، ويلقي عليهم السكينة والطمأنينة، ويسهل لهم الطاعات، ويحفظهم من المخالفات، ويتفضل عليهم بالصلوات والرحمة والهداية عند المصيبات. والله يرفعهم إلى أعلى المقامات في الدنيا والآخرة. ووعدهم النصر، وأن ييسرهم لليسرى ويجنبهم العُسْرى

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، (٢٧٢١)، (٧٢)، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل. من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ووعدهم بالسعادة والفلاح والنجاح . والصبر في ابتدائه صعب شديد وفي انتهائه سهل حميد العواقب كما قيل :

وَالصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ   لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِن الْعَسَلِ

- ٣٢ -

المحسن في إسلامه

عن على بن الحسين رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : **«مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْء تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيه»** . رواه مالك وأحمد ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة ، ورواه الترمذي عن علي بن الحسين وعن أبي هريرة [(١)] .

الإسلام - عند الإطلاق - يدخل فيه الإيمان ، والإحسان . وهو شرائع الدين الظاهرة والباطنة . والمسلمون منقسمون في الإسلام إلى قسمين ، كما دل عليه فحوى الحديث .

فمنهم: المحسن في إسلامه . ومنهم : المسيء .

فمن قام بالإسلام ظاهرًا وباطنًا فهو المحسن : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء :١٢٥] . فيشتغل هذا المحسن بما يعنيه ، مما يجب عليه تركه من المعاصي والسيئات ، ومما ينبغى له تركه كالمكروهات وفضول المباحات التى لا مصلحة له فيها ، بل تفوت عليه الخير . فقوله ﷺ : **«مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْء تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»** يعم ما ذكرنا . ومفهوم الحديث : أن من لم يترك ما لا يعنيه فإنه مسيء في إسلامه . وذلك شامل للأقوال والأفعال ، المنهيّ عنها نهي تحريم أو نهي كراهة .

- ٣٣ -

تربية الأولاد وتاديبهم

عن أيوب بن موسى بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده : أن رسول الله ﷺ قال : **«مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدَه مِنْ نَحْلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدبٍ حَسَنٍ»** . رواه الترمذي [(٢)] .

أولى الناس ببرك ، وأحقهم بمعروفك : أولادُك ؛ فإنهم أمانات جعلهم الله عندك ، ووصاك بتربيتهم تربية صالحة لأبدانهم وقلوبهم ، وكل ما فعلته معهم من هذه الأمور ، دقيقها وجليلها ،

(١) صحيح : أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٢١٠) وأحمد (١/ ٢٠١) ، والترمذي ، كتاب : الزهد (٢٣١٧) ، باب : رقم (١١) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢/ ٣٦٠) .

(٢) ضعيف : أخرجه الترمذي ، كتاب : البر والصلة (١٩٥٢) وضعف الحديث الألباني في الضعيفة (١١٢١) .

فإنه من أداء الواجب عليك، ومن أفضل ما يقربك إلى الله، فاجتهد في ذلك، واحتسبه عند الله، فكما أنك إذا أطعمتهم وكسوتهم وقمت بتربية أبدانهم: فأنت قائم بالحق مأجور. فكذلك -بل أعظم من ذلك- إذا قمت بتربية قلوبهم وأرواحهم بالعلوم النافعة، والمعارف الصادقة، والتوجيه للأخلاق الحميدة، والتحذير من ضدها.

و«**النّحَل**»: هي العطايا والإحسان. فالآداب الحسنة خير للأولاد حالاً ومآلاً من إعطائهم الذهب والفضة، وأنواع المتاع الدنيوي لأن بالآداب الحسنة، والأخلاق الجميلة يرتفعون، وبها يسعدون، وبها يؤدون ما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد، وبها يجتنبون أنواع المضار، وبها يتم برهم لوالديهم.

أما إهمال الأولاد فضرره كبير، وخطره خطير. أرأيت لو كان لك بستان فَتَمَّيتَه، حتى استتمت أشجاره، وأينعت ثماره، وتزخرفت زروعه وأزهاره. ثم أهملته فلم تحفظه، ولم تَسقِه ولم تُنَقِّه من الآفات، وتعده للنموّ في كل الأوقات، أليس هذا من أعظم الجهل والحمق؟ فكيف تهمل أولادك الذين هم فِلْذة كبدك، وثمرة فؤادك، ونسخة روحك، والقائمون مقامك حيًا وميتًا، الذين بسعادتهم تتم سعادتك. وبفلاحهم ونجاحهم تدرك به خيرًا كثيرًا. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٦٩﴾ [البقرة: ٢٦٩].

- ٣٤ -

الجليس الصالح والجليس السوء

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسّوْءِ: كَحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ. فَحَامِلُ الْمِسكِ: إِمَا أَن يُحْذِيكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً. وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَن تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً**» متفق عليه [(١)].

اشتمل هذا الحديث على الحث على اختيار الأصحاب الصالحين، والتحذير من ضدهم.

ومثَّل النبي ﷺ بهذين المثالين، مبينًا أن الجليس الصالح: جميع أحوالك معه وأنت في مغنم وخير، كحامل الرزق والكفاف، ولم تطمح نفسه لما وراء ذلك: فقد حصل له حسنة الدنيا والآخرة.

فإن النقص بفوات هذه الأمور الثلاثة أو أحدها: إما أن لا يُهْدَى للإسلام: فهذا مهما كانت

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الذبائح والصيد (٥٥٣٤)، باب: المسك، ومسلم، كتاب: البر (٢٦٢٨)، (١٤٦)، باب، استحباب مجالسة الصالحين.

حاله ، فإن عاقبته الشقاوة الأبدية . وإما بأن يهدى للإسلام ، ولكنه يبتلى : إما بفقر يُنسِى ، أو غنى يُطْغِي : وكلاهما ضرر ونقص كبير . وإما بأن يحصل له الرزق الكافى موسعًا أو مقدرًا . ولكنه لا يقنع برزق الله ، ولا يطمئن قلبه بما آتاه الله : فهذا فقير القلب والنفس .

فالحازم إذا ضاقت عليه الدنيا لم يجمع على نفسه بين ضيقها وفقرها ، وبين فقر القلب وحسرته وحزنه ، بل كما يسعى لتحصيل الرزق ، فليسْع لراحة القلب ، وسكونه وطمأنينته . والله أعلم .

- ٣٥ -

وصية بليغة

عن أبي أيوب الأنصارى رضي الله عنه قال : جَاءَ رَجُلٌ إلى النبي ﷺ ، فقال : يَا رَسولَ اللهِ ، عِظْنى وأَوْجِزْ . فَقَالَ : «**إِذَا قُمْتَ فِى صَلاتِكَ فَصَلِّ صَلاةَ مُوَدِّعٍ ، وَلَا تَكَلم بِكَلَامٍ تعْتذر مِنْهُ غَدًا ، وَأجْمع الإِياس مِمَّا فى أَيْدِى النَّاسِ**» رواه أحمد [١] .

هذه الوصايا الثلاث يا لها من وصايا ، إذا أخذ بها العبد تمت أموره وأفلح .

فالوصية الأولى: تتضمن تكميل الصلاة ، والاجتهاد في إيقاعها على أحسن الأحوال . وذلك بأن يحاسب نفسه على كل صلاة يصليها ، وأن يتم جميع ما فيها من واجب ، وفرض ، وسنة ، وأن يتحقق بمقام الإحسان الذي هو أعلى المقامات . وذلك بأن يقوم إليها مستحضرًا وقوفه بين يدى ربه ، وأنه يناحيه بما يقوله : من قراءة وذكر ودعاء . ويخضع له في قيامه وركوعه ، وسجوده وخفضه ورفعه .

ويعينه على هذا المقصد الجليل : توطين نفسه على ذلك من غير تردد ولا كسل قلبي ، ويستحضر في كل صلاة أنها صلاة مودع ، كأنه لا يصلى غيرها .

ومعلوم أن المودع ، يجتهد اجتهادًا يبذل فيه كل وسعه . ولا يزال مستصحبًا لهذه المعاني النافعة ، والأسباب القوية ، حتى يسهل عليه الأمر ، ويتعود ذلك .

والصلاة على هذا الوجه: تنهى صاحبها عن كل خلق رذيل ، وتحثه على كل خلق جميل ؛ لما تؤثره في نفسه من زيادة الإيمان ، ونور القلب وسروره ، ورغبته التامة في الخير .

(١) حسن : أخرجه أحمد (٥/ ٤١٢) ، وابن ماجه ، كتاب : الزهد (٤١٧١) ، باب : الحكمة ، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٤٦٢) ، وعند الحاكم (٤/ ٣٢٦ ، ٣٢٧) ، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ولذلك حسن الألباني الحديث في الصحيحة (٤٠١) .

وأما الوصية الثانية: فهي حفظ اللسان ومراقبته؛ فإن حفظ اللسان عليه المدار، وهو مِلاك أمر العبد. فمتى ملك العبد لسانه ملك جميع أعضائه.

ومتى ملكه لسانه فلم يصنه عن الكلام الضار، فإن أمره يختل في دينه ودنياه. فلا يتكلم بكلام، إلا قد عرف نفعه في دينه أو دنياه. وكل كلام يحتمل أن يكون فيه انتقاد أو اعتذار فليدعه، فإنه إذا تكلم به ملكه الكلام، وصار أسيرًا له. وربما أحدث عليه ضررًا لا يتمكن من تلافيه.

وأما الوصية الثالثة: فهي توطين النفس على التعلق بالله وحده، في أمور معاشه ومعاده: فلا يسأل إلا الله، ولا يطمع إلا في فضله. ويوطن نفسه على اليأس مما في أيدى الناس؛ فإن اليأس عصمة.

ومن أيس من شيء استغنى عنه. فكما أنه لا يسأل بلسانه إلا الله، فلا يعلق قلبه إلا بالله. فيبقى عبدًا لله حقيقة، سالمًا من عبودية الخلق. قد تحرر من رقِّهم، واكتسب بذلك العز والشرف؛ فإن المتعلق بالخلق يكتسب الذل والسقوط بحسب تعلقه بهم. والله أعلم.

- ٣٦ -

لا حسد إلا في اثنتين

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ الله الحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»** متفق عليه [(١)].

الحسد نوعان: نوع محرم مذموم على كل حال، وهو أن يتمنى زوال نعمة الله عن العبد - دينية أو دنيوية - وسواء أحب ذلك محبة استقرت في قلبه، ولم يجاهد نفسه عنها، أو سعى مع ذلك في إزالتها وإخفائها: وهذا أقبح؛ فإنه ظلم متكرر.

وهذا النوع هو الذى يأكل الحسنات **كما تأكل النار** الحطب.

والنوع الثاني: أن لا يتمنى زوال **نعمة الله عن الغير** ولكن يتمنى حصول مثلها له، أو فوقها أو دونها.

وهذا نوعان: محمود، وغير محمود.

(١) أخرجه البخاري، كتاب: العلم (٧٣)، باب: الاغتباط في العلم والحكمة ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها (٨١٦) (٢٦٨)، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه.

فالمحمود من ذلك: أن يرى نعمة الله الدينية على عبده فيتمنى أن يكون له مثلها . فهذا من باب تمني الخير . فإن قارن ذلك سعي وعمل لتحصيل ذلك : فهو نور على نور .

واعظم مَنْ يُغبَط: من كان عنده مال قد حصل له من حِلّه، ثم سُلّط ووفق على إنفاقه في الحق، في الحقوق الواجبة والمستحبة، فإن هذا من أعظم البرهان على الإيمان، ومن أعظم أنواع الإحسان .

ومن كان عنده علم وحكمة علمه الله إياها، فوفق لبذلها في التعليم والحكم بين الناس . فهذان النوعان من الإحسان لا يعادلهما شيء .

الأول: ينفع الخلق بماله، ويدفع حاجاتهم، وينفق في المشاريع الخيرية، فتقوم ويتسلسل نفعها، ويعظم وقعها .

والثاني: ينفع الناس بعلمه، وينشر بينهم الدين والعلم الذى يهتدى به العباد في جميع أمورهم : من عبادات ومعاملات وغيرها .

ثم بعد هذين الاثنين : تكون الغبطة على الخير، بحسب حاله ودرجاته عند الله . ولهذا أمر الله تعالى بالفرح والاستبشار بحصول هذا الخير، وإنه لا يوفق لذلك إلا أهل الحظوظ العظيمة العالية . قال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝﴾ [يونس: ٥٨] وقال : ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت :٣٤-٣٥] . وقد يكون من تمنى شيئًا من هذه الخيرات، له مثل أجر الفاعل إذا صدقت نيته، وصمم من عزيمته أن لو قدر على ذلك العمل، لعَمِل مثله، كما ثبت بذلك الحديث . وخصوصًا إذا شرع وسعى بعض السعي .

وأما الغبطة التى هى غير محمودة : فهي تمنى حصول مطالب الدنيا لأجل اللذات، وتناول الشهوات، كما قال الله تعالى حكاية عن قوم قارون :

﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص :٧٩] .

فإن تمنى مثل حالة من يعمل السيئات فهو بنيته، ووزرهما سواء .

فبهذا التفصيل يتضح الحسد المذموم في كل حال، والحسد الذى هو الغبطة الذى يحمد في حال، ويذم في حال . والله أعلم .

* * *

- ٣٧ -

من الأدعية الجامعة

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يدعو، فيقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى**» رواه مسلم [١].

هذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها. وهو يتضمن سؤال خير الدين وخير الدنيا، فإن «**الْهُدَى**» هو العلم النافع و «**التُّقَى**» العمل الصالح، وترك ما نهى الله ورسوله عنه. وبذلك يصلح الدين. فإن الدين علوم نافعة، ومعارف صادقة فهى الهدى، وقيام بطاعة الله ورسوله. فهو التقى.

و«**الْعَفَافَ وَالْغِنَى**» يتضمن العفاف عن الخلق، وعدم تعليق القلب بهم. والغنى بالله وبرزقه، والقناعة بما فيه، وحصول ما يطمئن به القلب من الكفاية. وبذلك تتم سعادة الحياة الدنيا، والراحة القلبية، وهى الحياة الطيبة. فمن رزق الهدى والتقى، والعفاف والغنى: نال السعادتين، وحصل له كل مطلوب. ونجا من كل مرهوب والله أعلم.

- ٣٨ -

فضل الإخلاص

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثٌ لَا يَغُلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لله، وَمُنَاصَحةُ وِلَاةِ الأمُورِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهم تُحِيطُ مَنْ وَرَائِهِم**» رواه مسلم [٢].

قال الشيخ شمس الدين ابن القيم رحمه الله: أى لا يبقى في القلب غل ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غله، وتنقيه منه، وتخرجه منه؛ فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الغش، وغلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلال. فهذه الثلاثة تملؤه غلاً ودغلاً. ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه، بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة. انتهى.

(١) تقدم تخريجه.
(٢) صحيح: هو جزء من حديث «نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها». والحديث ليس في صحيح مسلم كما ذكر المؤلف رحمه الله لكن رواية أنس هذه رواها أحمد (٣/ ٢٢٥) وابن ماجه في المقدمة (٢٣٦) ولذلك صححه الألباني في صحيح الترغيب (١/ ٤١).

أي : فمن أخلص أعماله كلها لله، ونصح في أموره كلها لعباد الله ، ولزم الجماعة بالائتلاف، وعدم الاختلاف . وصار قلبه صافيًا نقيًا، صار لله وليًا . ومن كان بخلاف ذلك امتلأ قلبه من كل آفة وشر . والله أعلم .

- ٣٩ -

قلة أهل الكمال والفضل

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «**إِنَّما النَّاسُ كَالإِبِلِ المائةِ . لَاتَكَادُ تَجِدُ فِيها رَاحِلَة**» متفق عليه (١) .

هذا الحديث مشتمل على خبر صادق، وإرشاد نافع .

أما الخبر: فإنه ﷺ أخبر أن النقص شامل لأكثر الناس، وأن الكامل - أو مقارب الكمال - فيهم قليل، كالإبل المائة، تستكثرها . فإذا أردت منها راحلة تصلح للحمل والركوب، والذهاب والإياب لم تكد تجدها . وهكذا الناس كثير . فإذا أردت أن تنتخب منهم من يصلح للتعليم أو الفتوى أو الإمامة، أو الولايات الكبار أو الصغار، أو للوظائف المهمة لم تكد تجد من يقوم بتلك الوظيفة قيامًا صالحًا . وهذا هو الواقع؛ فإن الإنسان ظلوم جهول . والظلم والجهل سبب للنقائص، وهى مانعة من الكمال والتكميل .

وأما الإرشاد: فإن مضمون هذا الخبر إرشاد منه ﷺ إلى أنه ينبغى لمجموع الأمة أن يسعوا، ويجتهدوا في تأهيل الرجال الذين يصلحون للقيام بالمهمات، والأمور الكلية العامة النفع .

وقد أرشد الله إلى هذا المعنى في قوله : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة :١٢٢] .

فأمر بالجهاد، وأن يقوم به طائفة كافية، وأن يتصدى للعلم طائفة أخرى؛ ليعين هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، وأمره تعالى بالولايات والتولية أمر بها، وبما لا تتم إلا به من الشروط والمكملات .

فالوظائف الدينية والدنيوية، والأعمال الكلية، لا بد للناس منها ولا تتم مصلحتهم إلا بها، وهى لا تتم إلا بأن يتولاها الأكفاء والأمناء وذلك يستدعي السعي في تحصيل هذه الأوصاف، بحسب الاستطاعة .

قال الله تعالى : ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن :١٦] والله أعلم .

(١) أخرجه البخاري: كتاب: الرقاق (٢٤٩٨)، باب: رفع الأمانة، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة (٢٥٤٧) (٢٣٢)، باب: قوله ﷺ «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة».

- ٤٠ -

من أقوال الأنبياء والمرسلين

مع الأنبياء:

مع نوح عليه السلام: كان إذا أكل قال: الحمد لله وإذا شرب قال: الحمد لله وإذا لبس قال: الحمد لله وإذا ركب قال: الحمد لله فسماه الله عبدًا شكورًا.

مع موسى عليه السلام: روي أن موسى عليه السلام قال لربه عز وجل: يا رب ما الشكر الذي ينبغي لك؟ قال: يا موسى لا يزال لسانك رطبًا من ذكري.

مع لقمان الحكيم: قال لقمان لابنه: يا بني بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعًا ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعًا.

قال عيسى بن مريم: لا تنازعوا أهل الدنيا في دنياهم فينازعوكم في دينكم فلا دنياهم أصبتم ولا دينكم أبقيتم.

قيل لعيسى عليه السلام: دلنا على عمل ندخل به الجنة قال: لا تنطقوا أبدًا. قالوا: لا نستطيع ذلك، فقال: لا تنطقوا إلا بخير.

يقول لقمان الحكيم لابنه: يا بني لا تضيع مالك وتصلح مال غيرك، فإن مالك ما قدمت وإن مال غيرك ما تركت، يا بني ارحم ترحم، ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الباطل يأثم، ومن لا يمسك لسانه يندم.

قال عيسى عليه السلام: «**من كثر كذبه ذهب جماله ومن لاح الرجال سقطت مروءته ومن كثرهمه سقم جسمه ومن ساء خلقه عذب نفسه**».

وعنه عليه السلام قال: «**العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت وجزء في الفرار من الناس**».

قال سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام: «**العلوم أقفال والأسئلة مفاتيحها**».

عن داود عليه السلام أنه قال: «**المرأة الصالحة مثل التاج المرصع بالذهب كلما رآها الرجل قرت عيناه برؤيتها**».

وعن سليمان عليه السلام: «**المرأة العاقلة تبني بيتها والسفيهة تهدمه**».

يقول عيسى عليه السلام: الدنيا أيام ثلاثة يوم مضى وليس بيدك منه شيء. وغد لا تدري أتدركه أم لا. ويوم أنت فيه فاغتنمه.

من أقوال الصحابة

من خطبه الخلافة لأبي بكر الصديق:

إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم، وتفكروا فيمن كان قبلكم، أين كانوا أمس، وأين هم اليوم أين الجبارون؟ أين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب؟

أين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها؟ إن الله قد أبقى عليهم التبعات وقطع عنهم الشهوات ومضوا والأعمال أعمالهم والدنيا دنيا غيرهم ألا إن الله لا شريك له، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيرًا، ولا يصرف عنه به سوءًا إلا بطاعته واتباع أمره، واعلموا أنكم مدينون، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته، لا خير في خير بعده النار، أيها الناس إن أكيس الكيس التقوى، وإن أحمق الحمق الفجور وإن أقواكم عندى ضعيف حتى آخذ له بحقه، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فإنه أهون، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتجهزوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨] كتاب «صور من حياة الصحابة والتابعين» (١)

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه: كتب لعماله على الخراج (خذوا الحق، وأعطوا الحق، الأمانة الأمانة، الوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله تعالى خصم لمن ظلمهم).

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس فإنه داء.

وعن عليّ رضي الله عنه أنه قال: إن الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة. والفقر يخرس الفطن عن حجته والمقل غريب في بلدته.

وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، هو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند الله، ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه وعند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودهم إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما متع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك.

(١) محمود مختار الهواري- عالم المعرفة للنشر والتوزيع.

أنتم عباد الله، والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية لا فضل فيه لأحد على أحد . . . ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلبًا لما عند الله، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه . عن أبي المتوكل قال: كان لأبي هريرة زنجية فرفع عليها السوط يومًا فقال: لولا القصاص لأغشيتك ولكنى سأبيعك إلى من يوفيني ثمنك اذهبي فأنت حرة لوجه الله عز وجل.

مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه: كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مدح قال اللهم أنت أعلم بي من نفسى وأنا أعلم بنفسي منهم . اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون واغفرلى ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون.

مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب قال: كرم المؤمن تقواه ودينه حسبه ومروءته خلقه. والجرأة والجبن غرائز يضعها الله حيث يشاء والقتل حتف من الحتوف والشهيد من احتسب نفسه على الله.

عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: تقوى الله مفتاح سداد وذخيرة ميعاد وعتق من كل ملكة ونجاة من هلكة، فبادروا بالأعمال عمرًا ماضيًا أو مرضًا حابسًا أو موتًا خالسًا فإنه هادم للذاتكم ومباعد طيباتكم. زائر غير محبوب وواتر غير مطلوب.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يا حملة العلم اعملوا به، فإنما العالم من عمل.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ثلاث يصفين لك ود أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحسن أسمائه إليه.

قال رجل للإمام عليّ رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا فقال: ما أصف لك من دار مَنْ صح فيها سقم ومن أمن فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها افتتن، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب.

وقال أيضًا عندما ذم رجل الدنيا: الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها.

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: لو أن قلوبنا طهرت لم تمل من ذكر الله تعالى.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: من بخل بالمال أن ينفقه وهاب العدو أن يجاهده والليل أن يكابده فليستكثر من قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. ويقول رضي الله عنه لأن أسبح الله تعالى تسبيحات أحب من أن أنفق عددهن دنانير في سبيل الله.

من أقوال التابعين

عن سفيان الثوري رحمه الله قال: اطلب العلم لتعمل به، ولا تطلبه للتباهى به فإن لك من عملك ما عملت به وعليك ما ضيعت منه.

وعنه: اعلم أن من طلب الخير صار غريبًا في زماننا ولا تستوحش واستقم على سبيل ربك فإنك إن فعلت ذلك كان مولاك الله تعالى وجبريل وصالح المؤمنين واشتغل بذكر عيوب نفسك عن ذكر عيوب غيرك واحزن على ما قد مضى من عمرك في غير طلب آخرتك.

لا تغبط أهل الشهوات بشهواتهم، ولا ما يتقلبون فيه من النعمة فإن أمامهم يوم تزل فيه الأقدام، وترعد فيه الأجسام وتتغير فيه الألوان، ويطول فيه القيام، ويشتد فيه الحساب، وتتطاير فيه القلوب حتى تبلغ الحناجر، فيالها من ندامة على ما أصابوا من هذه الشهوات.

قال سعيد بن المسيب: ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله عز وجل، ولا أهانت أنفسها بمثل معصية الله، وكفى بالمؤمن نصرة من الله عز وجل أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله.

مر رجل من مراد على أويس القرني فقال له: كيف أصبحت قال: أصبحت أحمد الله، قال: كيف الزمان عليك؟ قال: كيف الزمان على رجل إن أصبح ظن أنه لا يمسى وإن أمسى ظن أنه لا يصبح، فمبشر بالجنة، أو مبشر بالنار، يا أخا مراد، إن الموت وذكره لم يدع لمؤمن فرحًا، وإن علمه بعقوق الله لم يترك له في ماله فضه ولا ذهب، وإن قيامه بالحق لم يترك له صديقًا.

وعن الأحنف بن قيس أنه قال: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر.

وحين سمع الأحنف بن قيس رجلًا يقول: لا أبالى أمدحت أم هجيت قال الأحنف: استرحت من حيث تعب الكرام [1].

من أقوال الإمام ابن القيم في كتاب «الفوائد» من لم ينتفع بعينه لم ينتفع بأذنه للعبد ستر بينه وبين الله وستر بينه وبين الناس، فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله هتك الله الستر الذى بينه وبين الناس. إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

المخلوق إذا خفته استوحشت منه وهربت منه، والرب تعالى إذا خفته أنست به وقربت إليه.

اشتر نفسك اليوم فإن السوق قائمة والثمن موجود والبضائع رخيصة، وسيأتى يوم على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيها إذا قليل ولا كثير. ذلك يوم التغابن، يوم يعض الظالم على يديه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(١) المرجع السابق.

فهرس

الفهرس

* * *